الى القارىء

مُستقبل الكِتابة في تونس

بقلم : البشير بن سلامة

الكتابة التى أعنيها هى المضبوطة فى الفصل الثانى (الفقرة الثانية) من النظام الداخلى لاتحاد الكتاب التونسيين (1) وليست هى كل مكتوب كما تنص عليه مجلة الصحافة التونسية أو كل تاليف مكتوب كما يتبادر الى الذهن. هى هذا النوع من الخلق الذى يعتمد الكلام عندما ينزع الى صهر اللغة فى تنازعها مع الأدب والفكر والاسلوب . وهذا فى الواقع ما يوحى به روح الفصل نظريا عندما تمت صياغته . وفى هذه الحدود تدخل فنون الادب والفكر المعروفة وكذلك بالطبع كل بحث أو اقتباس أو ترجمة .

هذه الكتابة إذن هى التى أسائل نفسى مع القارىء الكريم عن مستقبلها فى بلادنا وهذا يعنى أن نضبط قبل ذلك وضعها فى الماضى والحاضر لننطلق على أسس ثابتة فلا نتشاءم بالقدر الذى به نبالغ فى حكمنا حتى تضيق بنا الدنيا وننادى بالويل والثبور ولا نتفاءل الى درجة الغفلة عن حقائق الامور وترك الحبل على الغارب .

---

(1) المقصود « بالكاتب » المنتج [فى الادب والفكر] هو المبتكر أو الباحث أو المترجم أو المقتبس ، على أن لا يكون انتاجه داخلا فى اختصاص مهنى محض .

أ — المبتكر من خلق انتاجا يتميز بالطابع الشخصى فى مضمونه أو شكله أو أسلوبه سواء كان ذلك نثرا أو شعرا فى جميع الانواع الادبية والفكرية القديمة والمحدثة .

ب — الباحث من أنتج أثرا عكف عليه دراسة أو تحقيقا أو تاريخا أو جمعا أو إضافة لعمل سابق .

ج — المترجم من نقل أثرا من العربية أو اليها بشرط أن يكون عمله مطابقا لما حدده البند الثانى من هذا الفصل .

د — المقتبس من أنتج أثرا اعتمد فيه أثرا لغيره وكان فى عمله تصرف أعطاه قيمة جديدة .

أول ما يجب أن ننبه اليه هو أن هذه الكتابة هي عمل يتأثر لا محالة بالمناخ وبالعوامل الخارجية والشخصية ولكنه يبقى عملا فرديا غامض الماهية دفين سر النشأة في الأنا ، مبهم الدوافع والنوازع ، يظهر حيث لا ينتظر ظهوره ويختفي في الوقت الذي ترتجى له فيه الديمومة والسيرورة . ولكنه وإن كان فرديا فمصيره الى الجماعة بها يربو ويزكو وتينع ثماره أو يتقلص ويتهافت وتنضب خيراته ، كالبذرة التي تلقى في الارض فان هي صادفت تربة خصبة برعمت وأينعت وأفاءت بنعمتها على الجميع وإن هي أودعت ثنايا الجدب والامحال فالى السكون الى حين أو الضياع الى الأبد .

وهكذا فان كلامنا لن يدور حول البذرة وتكوينها وصفتها وتاثيرها بل سنقصر تحليلنا على الارض وما يحف بها من جدب وخصب وسنصف الوسائل الكفيلة بخدمتها حتى تنتج وتثمر في أحسن الظروف . فالبذرة هي الكتابة والارض هي المجمع أو بالاحرى سلسلة من العناصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتماسكة الحلقات والتي تشد صرح الكتابة إن وهنت حلقة منها أو انكسرت تداعى الصرح فهو الى انهيار .

لا أريد أن أبين كيف كانت هذه السلسلة مكتملة الحلقات في عصور ازدهار الحضارة العربية الاسلامية لان ذلك معروف مشهور اذ كان الكتاب سواء بالسماع أو النسخ موزعا بصورة منتظمة جواب آفاق مرغوبا فيه تسبقه شهرته ويرعاه أصحاب الجاه والمال رغم تفشي الامية واضطراب الامور في كثير من الاحيان .

ولما دخل العالم العربي الاسلامي عصور الانحطاط لم تخل المجتمعات العربية من عباقرة ولكن الارض أجدبت وأمحلت حتى أن تاليفا ثوريا منبئا بالعصور الحديثة مثل تاليف ابن خلدون بقي قرونا لم يؤت أكله الى القرن التاسع عشر عندما بدأ الغرب يهتم به (1) فكان منطلقا للمصلحين التونسيين من أمثال قابادو وخير الدين وابن أبي الضياف وبعدهم جماعة الشباب التونسي كالبشير صفر وعلي باش حانبة وأخيه محمد .

ثم إن أفصح مثال عن هذا الوضع المزري ما تم في الثلاثينات بالنسبة الى تونس من حركة أدبية وفكرية وسياسية . فمتى عرف الجمهور التونسي شعر أبي القاسم الشابي ؟ بعد ربع قرن وبعد أن ذاع صيت شاعرنا في المشرق العربي وتأثر به جيل الخمسينات من شعراء الشرق . ومتى عرف الشعب التونسي الطاهر الحداد وحركة محمد علي النقابية ؟ بعد الاستقلال عندما أمرت

---

(1) الغريب أن كتاب العبر لابن خلدون لم يكن متداولا في تونس الى أن « أمر علي باشا في أواسط القرن الثامن عشر بجلب نسخة من فاس » عن كتاب للاستاذ أحمد عبد السلام يتعلق بالمؤرخين التونسيين صدر باللغة الفرنسية .

حكومة الاستقلال بطبع آثاره وأشاد به الرئيس الحبيب بورقيبة في خطبه.ومتى شاعت نسبيا كتب محمود المسعدى ؟ اللهم الا فى هذه السنوات القليلة ؟ فليس ادل على ذلك من فهم الرئيس الحبيب بورقيبة منذ الثلاثينات من أن الكتابة فى الصحف والمجلات بلغت ما بلغت من الجودة لا تؤتى ثمارها من حيث ايقاظها للنفوس والمشاعر فحول عمله السياسى الى ما يسميه « بالاتصال المباشر » .

هذا هو الوضع الذى حاول الجميع اصلاحه بعد الاستقلال بانشاء دور النشر والتوزيع واقامة الحوار فى صلب المؤسسات للوصول الى العلاج ولكن يظهر أن بعض الحلقات من السلسلة لم يتم شد بعضها الى بعض باحكام ولهذا ، فانه وإن تحسن الوضع تحسنا كبيرا عما كان عليه من قبل فان الازدهار المرجو لتونس فى هذا الحقل لم يتحقق وهى التى كانت مركزا من مراكز إشعاع الكتاب على العالم سواء فى الفترة القرطاجية أو الاسلامية .

ولهذا فانى سأحاول أن أطرق نقطتين اثنتين تتعلقان بهذا الموضوع ويكون ذلك مساهمة منى فى حل هذه المعضلة وهما : وضع الكتاب ، ووضع الكاتب وبطبيعة الحال فان وضع الكتابة يحل نفسه بنفسه عند ذلك .

1) وضع الكتاب :

إن الكتاب فى تونس يواجه صعوبات تتمثل خاصة فى غلاء تكاليف صنعه وهى متاتية أولا وبالذات من سعر الورق الباهض الذى يفوق ما هو موجود فى الخارج بـ 20 بالمائة تقريبا (فرنسا) زد على ذلك أن الورق المحلى زاد ابتداء من نوفمبر بما قدره 52 بالمائة وهو ما سيرفع من سعر الكتاب التونسى بـ 25 بالمائة وهذا سينعكس تماما على قدرة انتاج الكتاب فينخفض عدد العناوين فى السنة وتصعب منافسة الكتاب التونسى فى السوق العربية وحتى فى السوق التونسية امام سعر سائر الكتب العربية الاخرى حتى أن أحدهم قال :

(لا يعرف النشر إلا من يكابده ولا الطباعة إلا من يعانيها !)

ثم إن الأداءات القمرقية لقطع الغيار وآلات تجهيز المطابع ثقيلة جدا زد على ذلك ما يدفع من أداء على الارباح بمقدار 46 % من سعر الكتاب وما فى قطاع المطابع من قلة تنظيم واحتكار للمؤسسات الكبرى مما يجعل صناعة الكتاب فى تونس مهددة بالتضاؤل ناهيك أن دور النشر تحبذ طبع كتبها خارج تونس خاصة وأن الكتاب المستورد معفى من كل اداء وتكاليفه زهيدة الى حد بعيد .

ولهذا عوضا عن تدعيم هذه الصناعة بتجهيزها تجهيزا حديثا واحداث مواطن شغل جديدة وترغيب دور النشر الاجنبية للطبع فى تونس سنشهد تقلص هذا القطاع فى السنوات الآتية . هذا علاوة على ما تشكوه المطابع من عدم خلاص كثير من المؤسسات لما بذمتها مما يجر المسؤولين عن المطابع الى عدم التعامل معها فيشيع هؤلاء أن فى تونس مشكل طبع بينما الحقيقة غير ذلك .

وبطبيعة الحال فان غلاء سعر الكتاب يجعل الناشرين يستنكفون من القيام بالاشهار ومن صرف النسبة الكافية للتوزيع خوفا من تثقيل ثمن الكتاب

هذا علاوة على ما في قطاع المكتبات (الوراقات) من خوف من التعامل مع الكتاب نظرا الى قلّة نفاقه .

ولهذا فانه يتعين الانكباب على هذا القطاع لايجاد الحل للنهضة به ولا يكون ذلك الا باصلاح جميع الحلقات بتدخل الدولة لانه علاوة على امكانية احداث مواطن شغل جديدة والزيادة في الانتاج ، فانه يكون مجلبة لاشعاع تونس في ميدان هي قادرة على البروز فيه .

وأول ما يجب القيام به هو أن يتمتع الكتاب الثقافي بمثل ما يتمتع به الكتاب المدرسي من حيث تخفيض سعر الورق بنسبة كبيرة اذ ليس من المعقول أن نتمادى في هذه السياسية التي تشجع على تعلم القراءة ولكنها لا تشجع على المطالعة ناهيك ان روبر إسكاربيت (Robert Escarpit) المختص في ميدان الكتاب قال : « يجب أن تكون العناية بالكتاب الادبي متساوية مع العناية بالكتاب المدرسي . ولكن الواقع هو غير هذا . ففي البلدان النامية تجد نسبة الكتب الادبية من مجموع الانتاج تقدر بـ 20 أو 24 مرة اما في البلدان المتنامية التي تعطى الاولوية للعلوم الاجتماعية والعلوم التطبيقية فان نسبة الكتاب الادبي تتراوح بين 10 و 14 . إن هذا لقليل لارضاء نهم اربعة أخماس الانسانية في المطالعة » .

أما فيما يخص التخفيض في الاداءات القمرقية بالنسبة للتجهيزات وقطع الغيار فان ذلك لن يكلف الدولة تضحية باهضة وكذلك الاداء على الارباح عندما يخفض منه . بل بالعكس فان هذا القطاع عندما ينال التشجيع الكافي ويعظم انتاجه ويكثر عماله سيوفر للدولة المنافع الجبائية الكثيرة وحتى العملة الصعبة .

ولكن يجب أيضا تكوين اليد العاملة التكوين الصحيح حتى تكبر انتاجيتها وتفيد القطاع بدرايتها وتجربتها ويجب أيضا تنظيم قطاع المكتبات وتشجيعها لاقتناء الكتاب التونسي باغرائها وتخصيص نسبة قارة من سعر الكتاب للاشهار (5 بالمائة من كل كتاب عالميا) إذ لا يعقل أن يصدر الكتاب تلو الكتاب ولا يعلن عنه بالصورة التي تجلب الانتباه لا في تونس فحسب بل في الأقطار العربية أيضا . وهذا يفرض أيضا إيجاد الحل الجذري لمسالة التوزيع أي تسويق الكتاب التونسي ومسالة إعفاء الكتاب من ثمن النقل .

وتبقى حلقة أخرى من السلسلة وهي المطالعة . لقد قلت إننا نعلم القراءة ولا نعلم المطالعة ولهذا فانه يحسن أن ننكب فيما يخص البرامج التعليمية على تعويد التلميذ والطالب على حب المطالعة حتى ينشأ على ذلك ويستمر الى آخر حياته شغوفا بها من دون إغفال حل مشاكل ترقية اللغة العربية وهي كثيرة وكثيرة جدا .

2) وضع الكاتب :

ولكن حل قضايا صناعة الكتاب لا يمكن أن تفرض نفسها إذا لم ننظر في صانع محتوى الكتاب أي المنتج أي الكاتب .

فلست أعرف في التشريع التونسي ما ينص على وضع الكاتب قانونيا ففي

فرنسا مثلا يحدد أمر 30 مارس 1957 الكتاب كما يلي : « الكتاب هم الذين ينتفعون من نشر مؤلفاتهم وتوزيعها أكثر من 50 بالمائة من مواردهم » وبطبيعة الحال فان ذلك يخول لهم من الناحية الاجتماعية منافع كثيرة ويفرض عليهم واجبات . وعلاوة على المنافع الاجتماعية فان هناك تشجيعات من الدولة منها أن منحة تعطى للكاتب الشاب الذى ينشر أول كتاب له ويتمتع الكاتب المعروف بما يسمى بالسنة السبتية أى بسنة يتفرغ فيها الكاتب من مهنته الاصلية للكتابة .

ولست أعرف فى تونس كاتبا واحدا يعيش من قلمه أى من ايراد كتبه وهو أمر يدعو الى التدبر والتفكير بل جل من يكتبون يعيشون من قطاعات أخرى ويسرقون اوقاتهم للكتابة بينما يجب أن تكون الكتابة وظيفة اجتماعية يوفر المجتمع الى أصحابها الظروف ليشقوا طريقهم ويعتمدوا على أنفسهم من دون توظيف للكتابة لان توظيف الكتابة معناه الحد من الحرية والتواكل على الغير.

ذلك ان الكاتب الحق الذى لا يخلو منه أى مجتمع متحضر له دور هام في بناء الحضارة وبعث الخيرة فى النفوس لا للتخريب بل للبناء ولتغيير المجتمع فى السبيل الأقوم الذى يضمن بقاء الأمة وحركيتها . وإن الكتاب التونسيين الذين يضمهم اتحادهم يعملون فى هذا الاتجاه ويرومون انطلاقا من تنظيمهم أن يحققوا هذا الذى تحدثت عنه لأن البذرة بل البذور موجودة ولكن الأرض تحتاج الى الخدمة والتعهد والسماد وتخليصها من الأحجار والأشواك .

ولهذا فان اتحاد الكتاب في رأيي وجد من أجل هذا ومن أجل تحقيق هذه الاهداف بالتعاون مع السلط التى أبدت فى مناسبات عديدة استعدادها لحل هذه المشاكل العويصة ، مشاكل التقدم فى الواقع ، وهى تتطلب تضافر الجهود وقيام كل طرف بواجبه . على أن الذى لا يجب أن ينزلق اليه اتحاد الكتاب التونسيين هو تعويض الكتاب فى دورهم الخلاق ألا وهو الانتاج وأخذ المواقف فيما تفرضه عليهم وظيفتهم الاجتماعية وانتماؤهم الى أمتهم والى الانسانية . وأكثر من ذلك الاصداع بالرأى والتحرك البناء فى واضحة النهار لأنه ليس هناك فى بلادنا ما يمنع ذلك خاصة أن ما يحيى الادب والفكر ويخدم مستقبل الكتابة فى تونس إنما هو النقد باتم معنى الكلمة الذى لا يخاف فى الحق لومة لائم ولا يخافه أى مخلص نزيه .

وهكذا يمكن القول : إن مستقبل الكتابة فى تونس رهين بصلابة هذه الحلقات وتماسكها وتلاحمها وهذا يحمل لا محالة اتحاد الكتاب كهيئة تنظيمية قسطا من المسؤولية وكذلك الدوائر المسؤولة ولكن القسط الاكبر من المسؤولية يتحمله الكتاب أنفسهم فردا فردا فى وجوب تماسكهم وشعورهم بالتضامن ووعيهم برسالتهم العظمى فى المساهمة فى النهضة بامتهم والانسانية .

البشير بن سلامة

مِـن وَحْيِ الماضي

قصة بقلم: الطاهر قيقة

البحر هائج مائج . تتسابق أمواجه وتتراكب لتنحط على الرمل . يمشى (كليون) على السيف حافى القدمين فى جلبابه الفضفاض ويرفع من حين لآخر ذراعيه موليا وجهه الى البحر . قيل له انه هكذا يخاطب الجمهور . ومـا من أحد على مرمى البصر فى هذه الناحية من ساحل اليونان .

ـ يا مواطنى أثينا ! اطردوا من مدينتكم العلماء والمفكرين والفلاسفة . انهم حشرات سامة . يبعثون الحيرة فى النفوس . نحن نرفض الشك والحيـرة . طريقنا واضحة لا يغشيها غبار . شعبنا طيب . وديع متحضر . احذف كلمـة متحضر . سيهزؤون بى ويتعالى صراخهم . أين أنا من الحضارة . أنا الدباغ النتـن .

ـ شعبنا طيب ووديع . ولكنه عنيف مخيف . حذار من الخروف اذا تنمر...
كان ينظر الى البحر محملقا رافعا رأسه يصيح بأعلى صـوته مغالبا صخب الامواج . نصحوه بذلك التمرين حتى يصبح له صوت جهورى صادح قيل له : إن الزعامة فى ان يعلو صوتك اصوات الآخرين .

ولذلك خرج من أثينا فى تلك الامسية قاصدا ذلك المكان النائى الخالى من شاطىء يونان ليقوم بأول تمرين له . كان يمشى بخطى بطيئة رافعـا رأسـه ملوحا بكمى ثوبه . قيل له ان سر التأثير على الجمهور يكمن فى طريقة المثول لديه . ينبغى أن يقترب من المنصة بخطى بطيئة ثابتة تنم عن ثقل المسؤوليات التى يتحملها فى ثقة وصفاء نفس وينبغى أن ينتصب على المنصة وكأنه غرس فيها غرسا .

وتعالى زئير البحر عندما تدلت الشمس الى المغيب مداعبة معالم أثينا التى كانت ترى ـ بعيدا ـ على خط الافق . ورمى بنظرة الى مدينته وتنهد .

وجال فى مخيلته مشهد المدينة يوم أجتماع مجلس الشعب . انتشر الاعلاج فى ارجائها يحثون الناس على التوجه الى ساحة المجلس دفعا بالقسى . ثم مدوا الحبال محاصرين الساحة وقد لوثوها بمسحوق أحمر يلصق فى الثياب حتى لا يخطر ببال أحد حصل فى الساحة ان يتسلل منها .

وأحاط الجمهور بالمنصة الحجرية كالبحر المزبد . وتخيل (كليون) انه يتقدم فى اتجاه المنصة ويصعد عليها وينتصب .

ـ يا مواطنى أثينا ! اطردوا من مدينتكم العلماء والفلاسفة . انهم حشرات سامة . يبعثون الحيرة فى النفوس . فتبا للحيرة وسحقا . طريقنا واضحة لا غبار عليها . لان الشعب هو الذى خطها وعبدها . فالمشورة لكم ولا حكم الا للشعب .

وتحول زئير البحر الى دمدمة رعد واصبح لا يسمع (كليون) صوته . المهم ان يعلو صوت الخطيب اصوات الجماهير . المهم ان يرجع صداه الى أذنيه . انه لا يسمع شيئا . وتخيل اناسا يصيحون ويحتجون ويقولون : اسكتوه ! الى المدبغة ! ودقت فى اذنه ضحكات عالية ترن كالاجراس تلك ساعة عصيبة قاتلة . لا ينبغى ان يغادر المنصة . لا سبيل الى التزحزح ما دام لم يبلغ المقالة الى الجمهور .

يا مواطنى أثينا ! اطردوا من مدينتكم العلماء والمفكرين والفلاسفة . انهم حشرات سامة يبعثون الحيرة فى النفوس ويفضلون الشك على اليقين ويدعون لاعادة النظر فى الامور وتغيير الاوضاع . يفسدون شباب أثينا بتعاليمهم وينتهكون مقدسات المدينة وينالون من مكاسبها . يريدون ان يسوس الشعب أذكى الناس وأوسعهم اطلاعا واغزرهم خبرة واكثرهم تعلقا بالقيم الفكرية . تبا لهم من مارقين ! هم فى عزلة عنكم يتوهون فى ضباب النظريات العامة ويعجزون عن فض مشاكلكم الحياتية اليومية . يدعون الحكمة وهم عن الحكمة بعيدون . لأن الحكمة فى الشعب ولا يجمع الشعب على ضلال .

أمروا من بينكم أحدا منكم ليطهر المدينة من هؤلاء الرهط ويوكل للسهر على شؤونكم ذوى السواعد المفتولة والعزائم الصادقة . فارادة الشعوب أقوى من عقول المفكرين لانها مقتطعة من ارادة الآلهة .

ولا يغرنكم منهم من تشبه بكم وآثر حياة الكفاف على الرخاء مثل سقراط يخاطبكم فرادى ويلاحقكم ويلح عليكم باسئلته حتى يبعث فيكم الشك فى سلامة سلوككم وصلاح اعمالكم . هل تجرأ يوما فخاطبكم جماعة . لم يجرؤ ـ وحق الآلهة ـ لانه يعلم ان الجماهير اذا تجمعت افرزت الفكر والحكمة والقدرة على تخطيط المصير ...

وقطع الظلام خطابه وأحس بالوحشة فرجع ادراجه متجها الى المدينة البعيدة البعيدة وهو يقول : الى أثينا !

الطاهر قيقه

من قصص الأعداد القادمة

جنون سقراط .... الطاهر قيقه

الدمعة الثالثة .... عبد العزيز الفرشيشى

الصمت والعربة .... يوسف سلامه

الصفقة الخاسرة .... دليلة الزيتونى

وضعية رياضية .... خليفة الجورنى

رد على مقال عنوانه :

بين الحصري وابن حزم

بقلم : الشاذلي بويحيى

قرأنا (*) بمزيد العجب فى مجلة « الفيصل » (1) مقالا بعنوان « بين الحصرى وابن حزم » حرره محمد بن سعد الرويشد (2) يدعى فيه « الابانة عن وجهة نظر جديدة فى الادب العربى » .

ووجهة النظر الجديدة هذه التى يقصد الابانة عنها فى هذا المقال هى تأثر ابن حزم الاندلسى فى كتابه « طوق الحمامة » بكتاب ابراهيم الحصرى القيروانى « المصون فى سر الهوى المكنون » اذ يقول : « ولكن الذى لم يلتفت اليه أولئك [الباحثون] أن ابن حزم لم يكن هو المبتكر لموضوعه أو المتخصص بهذا الفن فقد سبقه غيره فى هذا المجال وبرزوا فيه ٠٠٠ » الى أن يقول : « ٠٠٠ ولكن الذى نحب إثارته فى موضوعنا هذا ٠٠٠ هو الابانة عن وجهة

(*) أرسلنا هذا الرد فى إبانه الى مجلة «الفيصل» لكنها لم تنشره ورضيت هكذا باخفاء هذه السرقة العلمية وتبنيها ٠ فعرضناه على مجلة « الفكر » الغراء فنشرته هنا فلها منا جزيل الشكر على موافقتها فى نصرة الحق وخدمة العلم (ش. ب.)

(1) مجلة ثقافية شهرية تصدر بالرياض (المملكة العربية السعودية) العدد العاشر ٠ السنة الاولى ٠ ربيع الثانى 1398 هـ/مارس – افريل 1978م. ص 16 – 21 .

(2) اسمه الحقيقى لعله الشويعر لا الرويشد ٠

نظر جديدة فى الأدب العربى ترتبط بتأثير [كذا] ابن حزم بأبى اسحاق الحصرى فى كتابه المصون فى سر الهوى المكنون » (3) ٠

غير أن محمد بن سعد يعرف أننا سبقناه الى « الابانة ٠٠٠ عن وجهة النظر » هذه منذ سنة 1964 م٠ فلم ير بدا من زيادة قوله : « ذلك أن أول من لفت النظر الى المقارنة بين المصون وطوق الحمامة هو الشاذلى بويحيى عندما أشار الى أن فى المصون مشابهة لطوق الحمامة » (4) ٠

فاقتصر على الاشارة الى اكتشافنا بهذه الجملة دون بيان ما يعنيه فيها بعبارة « لفت النظر » و « المقارنة » و المشابهة « ودون ذكر ما وصلنا اليه ببحثنا ولو ملخصا حتى يستطيع قارى، مقاله معرفة ما جاء به هو من جديد مبتكر يمكن أن يطلق عليه عبارة « وجهة نظر جديدة فى الأدب العربى » ٠

ثم هو لم يقتصر على هذه الاشارة الناقصة التى لا تفى بحق باحث سبقه الى اكتشاف استغله واستفاد منه بل عمد صراحة فى ثبات وجرأة الى طمس ذلك الحق وجحود فضل السبق والاكتشاف عند صاحب السبق والاكتشاف فقال : « ولكننى عندما قرأت الكتابين [يعنى «المصون» للحصرى و «طوق الحمامة» لابن حزم] ترددت فى كتابة مقارنة بينهما لانه ثمة فروقا [كذا فى نصه] كثيرة تبعد رائحة الشبهة [كذا] التى أشار اليها الشاذلى بويحيى». (5) فهذه عبارة تعنى بوضوح انه لا طائل من وراء المقارنة التى يقول اننا دعونا اليها بين الكتابين كما تعنى أن الفروق الكثيرة بين الكتابين تبعد رائحة الشبه الذى أشرنا اليه (6) .

غير أن محمد بن سعد لا يلبث أن يتناقض تناقضا غريبا عندما يشرع اثر هذه العبارة فى ما يحسبه حجته وذلك انه يبنى هذه الحجة على مقارنة متواصلة

---

(3) ص. 16 . فى هذا المقال أغلاط لغوية عديدة نبهنا بكلمة [كذا] الى ما جاء منها فى ما استشهدنا به هنا من نصه ٠

(4) ويعلق على هذا بما نصه : «حوليات الجامعة التونسية» العدد الاول ص 17

(5) ص ٠ 17

(6) عبارتنا هى : « فالشبه متين بين الكتابين » (ص٠ 18 من حوليات الجامعة التونسية) . أما كلمة « الشبهة » فهى فى عبارة محمد بن سعد .

بين الكتابين الى آخر مقاله بعد أن كان نفى امكانية المقارنة بينهما. ثم هو يبدأ تفصيل حجته بعبارة « وجود مشابهة كثيرة بين الكتابين » ٠ فنسى أنه نفى قبيل ذلك بأسطر وجود « رائحة الشبه التى أشار اليها الشاذلى بويحي » ٠ وهذا التناقض الفظيع علامة ارتباك من سعى الى اخفـاء مصدر مقالـه فخاب سعيه لأن مقاله كله ليس الا مجرد سلخ لذلك المصدر الـذى استـوعب فى الحقيقة جميع ما جاء فى ذلك المقال ٠

وهذا المصدر الذى سلخه محمد بن سعد الرويشد (أو الشويعر) سلخا انما هو بحثنا الذى اقتصر محمد بن سعد على مجرد الاشارة الى محل نشره٠ وهو مقال نشرناه بعدد سنة 1964م٠ من « حوليات الجامعة التونسية » تحت عنوان « حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصرى » بينا فيه أن الحصرى توفى سنة 413 هـ. لا سنة 453 هـ. كما جاء فى بعض المصادر القديمة والحديثة وأن الجيل الذى تأثر بتعليم الحصرى وبكتبه بصورة مباشرة أو غير مباشرة انما هـو جيل النصف الاول من القرن الخامس وما بعده ولاحظنا شبها متينا بين كتاب « المصون » للحصرى وكتاب « طوق الحمامة » ٠ والملاحظ أننا أول من تحدث بشىء من التفصيل عن كتاب «المصون» بعد أن طالعنا مخطوطة منه اكتشفناها بمكتبة « لايدن » في هولاندا ٠

وفى تلك السنة أيضا ــ سنة 1964 م ــ شاركنا فى مؤتمر المستشرقين الدولى المنعقد بدلهى الجديدة عاصمة الهند ببحث عنوانه « دور ابراهيم الحصرى الحاسم فى الازدهار الادبى بالمغرب الاسلامى فى القرن الخامس هـ٠ » اشتمل من بين نتائجه على اكتشافنا لكتاب «المصون» للحصرى وامكانية تأثر ابن‌حزم به فى كتابه « طوق الحمامة » ٠ وقرأنا هذا البحث على رؤوس الملأ فى مؤتمر ضم عددا كبيرا من علماء العالم بين عرب ومستشرقين ٠ ولا شك أن منهم الآن من هو من قراء مجلة « الفيصل » مثلنا فيذكر بحثنا وهـو يقرأ مقـال محمد بن سعد الرويشد (أو الشويعر) هذا ٠

كما أننا اعلنا هذا الاكتشاف وأشرنا الى امكانية تأثر ابن حزم فى « طوق الحمامة » بكتاب « المصون » للحصرى في فصل «الحصرى» الذى ظهر بتحريرنا فى الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية «Encyclopédie de l'Islam» ج 3 ص 660 ــ 662 وكذلك فى كتابنا « الحياة الادبيـة بافريقيـة فى العصر الصنهاجي » الصادر بالفرنسية فى تونس سنة 1972 ٠ ومـن المؤسف مـا لاحظناه فى تحقيق إحسان عباس للقسم الرابع من « ذخيـرة » ابـن بسـام

الصادر عن الدار العربية بليبيا وتونس في سنة 1979 ، ذلك أنه لما ورد ذكر كتاب « المصون » للحصري في المجلد الثاني من هذا القسم الرابع من الذخيرة (ص 584) علق المحقق على ذلك بقوله : « ومن هذا الكتاب نسخة بخزانة شيخ الاسلام بالمدينة المنورة ذكرها الدكتور محمد بن سعد الرويشد في مقارنة اجراها بين طوق الحمامة والمصون (مجلة الفيصل السنة الاولى عدد 10 ص 16 ـ 21) وانظر بروكلمان 1 : 267 » ولا ذكر لمقالنا بعدد سنة 1964 من مجلة « حوليات الجامعة التونسية » ولا لدائرة المعارف الاسلامية في فصل « الحصري » من تحريرنا ولا لكتابنا عن « الحياة الادبية بافريقية في العصر الصنهاجي » وكلها سابق لظهور مجلة الفيصل وفيها جميعا ذكرنا اكتشافنا نسخة من كتاب « المصون » وأشرنا الى امكانية تأثر ابن حزم به في « طوق الحمامة » . وإحسان عباس ممن مكنته السلط الثقافية التونسية من زيارة تونس مرارا . فان لم تصله مؤلفاتها فما باله لم يغتنم فرصة الضيافة للتطلع الى ما يصدر فيها من الكتب والمجلات الادبية والعلمية التي تهم الميدان الذي يعتني بتحقيق تراثه ؟ (7)

ثم نحن اذا رجعنا الى هذا المقال الذي يدعي محمد بن سعد الرويشد أنه اكتشف به وجهة نظر جديدة في الادب العربي رأينا أن عناصره تتلخص في نقطتين أساسيتين هما المشابهة بين الكتابين والادلة على أن ابن حزم تأثر في « طوق الحمامة » بالحصري في كتاب « المصون » . ويشرع في بحثه بقوله : « ... كما توجد لقاءات بين الكتابين تكاد تؤكد أن أحدهما متأثر بالآخر . وهذا هو ما يهمنا هنا والذي بموجبه **أرجح أن ابن حزم في كتابه طوق الحمامة قد تأثر الى حد كبير بالحصري في كتابه المصون** . وذلك لسببين رئيسيين.

أولا : وجود مشابهة كثيرة ببين الكتابين ... » (8) . وهي النقطة الاولى . فيقوم بمقارنة بين الكتابين ـ تلك المقارنة التي كان قال عنها انه تردد في

---

(7) على أننا نعلم أنه يملك مجموعة كاملة من أعداد مجلة « حوليات الجامعة التونسية » .

(8) ص. 17. والعبارة التي اثبتناها بالخط الغليظ وردت هكذا بالخط الغليظ في نص محمد بن سعد في مجلة « الفيصل » فهو يؤكد بذلك على ما يدعيه من الترجيح الذي سبقناه اليه .

كتابتها بينما شغلت أكثر من ثلثى مقاله ـ ويجد أحد عشر وجه تشابه بعد أن كان أبعد رائحة التشابه بين الكتابين ٠

أما النقطة الثانية فهى الادلة التى تؤكد ترجيحه لتأثر ابن حزم بالحصرى وأهمها دليلان هما أولا وفاة الحصرى سنة 413 هـ٠ بينما صنف ابن حزم « طوق الحمامة » بين سنتى 417 و 418 هـ٠ ثانيا اطلاع أدباء الاندلس على مؤلفات أدباء القيروان بدليل قول ابن حزم فى رده على ابن الربيب القيروانى: « ولعمرى ما لهم كتاب مشهور الا وقد اطلعنا عليه » ٠

وهذا هو بالضبط ما كنا أبرزناه فى بحثنا المذكور الصادر سنة 1964 م٠ وقد ركزناه فعلا على نقطتين أساسيتين هما أولا : اثبات وفاة ابراهيم الحصرى بصفة علمية فى سنة 413 هـ٠ ثانيا : بيان اثر ابراهيم الحصرى فى الازدهار الادبى بالمغرب الاسلامى بما فى ذلك صقلية والاندلس فى القرن الخامس الهجرى وبينا أن النقطتين متماسكتان لان ضبط تاريخ وفاة الحصرى يضبط الجيل الذى تأثر بتعاليم الحصرى ومؤلفاته ٠ ومن بين ما ذكرنا من نماذج تأثير الحصرى تأثر ابن حزم فى كتابه « طوق الحمامة » بكتاب «المصون» للحصرى ٠ فلقد كتبنا فى آخر ذلك المقال ما نصه حرفيا :

« واذا تجلى لدينا بهذا مدى اثر الحصرى فى الادب بافريقية فالتحقيق
« فى تاريخ وفاته يبدو لنا ذا شأن خطير اذا ما خرجنا بالبحث والنظر
« من نطاق افريقية الضيق الىأقطار عربية أخرى.ونريد أن نقصر البحث
« هنا على نقطة وجيزة لا نتجاوزها نقتصر بها ـ دون ما تعمق ـ على
« الاشارة الى ما يبدو لنا **كشفا هاما فى تاريخ الادب العربى** ٠ ذلك أننا
« بتتبع آثار ابراهيم الحصرى فى مظانها عثرنا على تاليف له غريب هو
« كتاب «المصون فى سر الهوى المكنون» (٠٠٠) والوقوف على هذا الكتاب
« وقراءته وتحليله لا يغير النظرية التقليدية حول منتوجات الحصرى
« فحسب فيجعلها تتجاوز نطاق الادب المحض بل وصل بنا الاطلاع على
« هذا الكتاب الى رأى آخر لا تخفى أهميته على علماء العربية اذا أثبته
« بحث مدقق نرجوه قريبا ٠ **وهو أن كتاب الحصرى هذا يمكن اعتباره**
« **أصلا من الاصول المظنونة لتاليف** ابن حزم الاندلسى المسمى « طوق
« الحمامة فى الالفة والالاف » ٠ فالشبه متين بين الكتابين ٠ **واشعاع**

« **افريقية الادبى والعلمى على الاندلس كبير غير مجحود** وتفوق الافارقة
« وعطفهم على علماء الاندلس وأدبائها مشهور • والتجاوب بين القطرين
« وتتبع أهل القطر لما ينشأ وما لا ينشأ ـ خاصة ـ فى القطر الآخر
« معروف . فلا يبعد اذن بل يقين ـ الا اذا ما أثبت النقد الداخلى عكس
« ذلك ـ ان ابن حزم المتوفى سنة 456 هـ• عرف كتاب « المصون »
« للحصرى كما عرف رسالة الجاحظ فى «العشق والنساء» و «الموشى»
« للوشاء ورسائل اخوان الصفاء **وتأثر به** كما تأثر بتلك الاخرى • ولا
« يكون وجود التأثر فى **هذا الحدث الادبى الخطير** الا اذا اثبت يقينا أن
« أبا اسحاق ابراهيم الحصرى توفى سنة 413 هـ• وهو ما أردنا كشف
« الظنون عنه » (9) •

فبهذا النص وبالمقارنة بينه وبين ما ذكرناه من مقال محمد بن سعد الرويشد وما لخصناه من عناصره يتبين القارىء أن محمد بن سعد الرويشد **لم يقتصر على** السطو على نتيجة بحثنا المتقدم على مقاله **بأربع عشرة سنة بل هو سطا** حتى على مبنى البحث وهيكله الثنائى المتمثل فى ضرورة تأثر ابن‌حزم **بالحصرى نظرا** لثبوت وفاة الحصرى قبل تأليف كتاب ابن حزم • **لكن الامر يتجاوز السطو** على النتائج وعلى منهج البحث الى الحجج الجزئية **اذ نحن الذين أثبتنا بصفة علمية** وفى بحث استغرق ست صفحات من مقال **يعد عشرا أن الحصرى توفى** سنة 413 هـ لا 453 هـ بينما يقتصر محمد بن سعد الرويشد على مجرد ذكر وفاة الحصرى فى سنة 413هـ بدون اشارة الى بحثنا **وقد قرأه كما هو معروف • فهو اذن لم يأت بجديد في هذه النقطة الأساسية بل قد أخذها عنا.**

ثم ذكرنا فى بحثنا (10) أنه من المشهور أن ابن حزم ألف طوق الحمامة حوالى سنة 417 هـ. مما يثبت أن ابن حزم هو الذى تأثر بكتاب الحصرى **المتوفى سنة 413 هـ• فمحمد بن سعد الرويشد لم يأت بجديد فى هذه النقطة أيضا بل أضاع جزءا غير قليل من مقاله فى السعى لبيان أن ابن حزم ألف طوق الحمامة** بين سنة 417 وسنة 418 هـ• **وهو كما ذكرنا أمر «مشهور» لا يحتاج الى اثبات • ولا شك ان محمد بن سعد الرويشد يعلم ذلك لانه بدأ مقاله بالاشارة الى كثرة الدراسات العلمية حول «طوق الحمامة» وجلها قد اثبت تاريخ تأليف هذا الكتاب •**

---

(9) « حوليات الجامعة التونسية » العدد الاول • سنة 1964 • ص 17 ـ 18•
(10) المرجع السابق ص 18 تعليق عدد 13 •

أما احتجاجه على اطلاع ابن حزم على ما كان يصدر من كتب مشهورة بافريقية (11) برد ابن حزم على ابن الربيب فقد أخذه عنا أيضا اذ سبقناه اليه منذ سنة 1964 م. في بحثنا المذكور الذي هو منطلق مقاله اذ قلنا : « والتجاوب بين القطرين وتتبع أهل القطر لما ينشأ وما لا ينشأ ـ خاصة ـ في القطر الآخر معروف » وعلقنا على هذا الكلام بقولنا في الهامش : « انظر مثلا رسالة ابن الربيب القيرواني الى عبد الوهاب بن حزم الوزير الاندلسي وردا ـ مؤخرا ـ عليها لابي محمد على بن حزم صاحب « طوق الحمامة » في كتاب « الذخيرة » لابن بسام 4/1 ص 111 وما بعدها » (12) .

فلقد تبين بهذا كله أن مقال محمد بن سعد الرويشد برمته ليس الا سلخا سافرا لبحثنا المذكور .

أبعد هذا كله يجرؤ محمد بن سعد الرويشد على أن يكتب في بداية مقاله « **أرجح أن** ابن حزم في كتابه طوق الحمامة قد تأثر الى حد كبير بالحصري **في** كتابه المصون » ؟ وأن يعود في نهاية المقال فيكتب : « فان كتاب المصون فيما **رجحت** يعتبر على الاقل مصدرا **من مصادر ابن حزم** » ؟

فما الذي حمله على هذا السطو وهذا السلخ يا ترى ؟ ألأنه أمن تفطننا اليه وتفطن الباحثين والقراء في العالم ؟ أم هو سوء ظن بمجلة « الفيصل » **فاعتقد**

---

(11) مجلة « الفيصل » العدد المذكور ص 20 .

(12) « حوليات الجامعة التونسية » العدد المذكور . ص 18 تعليق عدد 12 . ويخطىء محمد بن سعد عندما يتحدث عن **مناظرة** بين ابن حزم وابن الربيب (في مقاله بمجلة « الفيصل » ص 21) لان ابن الربيب وجه رسالته الى الوزير أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم وعثر عليها أبو محمد بن حزم صاحب طوق الحمامة **بعد وفاة ابن الربيب** فألف رده المشهور عليها (انظر تفاصيل ذلك في مقال نشرناه بحوليات الجامعة التونسية العدد الخامس سنة 1968 ص 119 ـ 123 قدمنا فيه الكتاب الذي نشره صلاح الدين المنجد بعنوان « فضائل الاندلس وأهلها » . انظر أيضا كتابنا « الحياة الادبية بافريقية في العصر الصنهاجي » ط . تونس 1972 ص 102 ـ 104 و 291 ـ 293 . وهذا الخطأ دليل على أن حججه ليست نتيجة بحث وانما نقلها عنا نقلا .

أن ليس لها قراء بتونس وأنه اذا نشر مقاله بها فلن يصل الينا صداه ؟ فليعتبر بما ذكره من قول ابن حزم : « ولعمرى ما لهم كتاب مشهور الا وقد اطلعنا عليه » . ومجلة « الفيصل » سواء كانت مشهورة أو غير مشهورة فنحن بتونس نطالعها وسيرورة الكتب فى عصرنا أكبر منها فى عصر ابن حزم .

لقد بدأنا ردنا هذا على مقال محمد بن سعد الرويشد بالتعجب منه ولعل القارىء صار يشاركنا الآن هذا التعجب. لكن الذى هو أعجب من العجب خاتمة مقال محمد بن سعد الرويشد ننقلها حرفيا هنا ونستسمحه استعمالها بدورنا خاتمة لردنا هذا وهى قوله : (13) « ونحن نشاهد فى عصرنا من يؤلف كتابا يرشد الى مراجعه فيأتى مؤلف آخر ليرجع الى هذه المراجع متأثرا بسابقه الذى كان له فضل السبق فى هذه المراجع فيشير الى تلك المصادر دون أن يشير الى الكتاب الذى انتفع به » .

فسبحان الذى أنطق الظالم بحق المظلوم .

الشاذلى بويحيى

(13) مجلة « الفيصل » العدد المذكور ص 21 .

حتمية الدفن لجنازة الركوع

شعر : الصادق شرف
(أبو وجدان)

نخاع الحرية المعذب مدى الحياة ، جسد بلال..
أول اشراقة في آخر ليل العبودية ، وجه بلال ..
اول من اذن على جنازة الركوع صوت بلال ..
ويضاجعنا بطلان الصلاة حين نضاجع الركوع
الديكي ... حين نخر للسجود النعامي ..
حين نرفع اصابعنا للتشهد الضفداعي ، ولكن
اصنعي ايتها الامواج عودة الوعي !

1 ـ على مستوى الممنوع الأول ..

أذّنْ في الموج على رأس الفجر الآتي ..
فَجِّرْ حنجرة الصوتِ العاتي ..
ياكلَّ بلال أَذّنَ لصلاة منْ غيرِ رُكوعْ ..
ممنوعٌ صوتُك لكنْ أَذّنْ : « بالممنوعاتِ الخطّ الهاتفُ
بالإلصاقات الممنوعة مقطوعْ ..»
«ما عادَ هنالكَ إلصاقٌ ممنوعْ ..»
«ما دام الهاتفُ ـ حتى إذْ يقطع ـ مَسْمُوعْ !»
يا صوتا منحوتا في ذاكرةِ التاريخِ ، على زاويةِ المنعرج التاريخي
لماذا كتبُوا : « الإلصاق هنا ممنُوعْ» . ؟
ولماذا رائحةُ الإلصاقات اليوم تكادُ تكونُ عبيرا مسموعًا .؟

ويكاد يكونُ التّضييقُ يسوعَا ..
ويكادُ يكونُ الفردُ جموعَا ..
وتكادُ تكونُ أصولُ الصلوات فروعَا ..
ويكادُ يكونُ التكبيرُ ختاما ، والتسليمُ شروعَا ..
قد تصبحُ حتى البدعةُ ، حتى الردةُ دينا مشروعَا .
لكنّ الشيءَ الممنوعَ أذانك ياكلّ بلال ، سيظلّ أذانُك شيئا ممنوعَا.

★ ★ ★

2 ـ (اللاهات) في نبوة القرن العشرين ..

(اللاّهاتُك) ياكلّ بلالِ القرنِ العشرينَ نبيٌّ من غير نبوءاتْ ..
أمجدُ ما عرفَ التاريخُ ، وجذعَ النخلةِ يتأبّطُ كتفيْكَ ..
(اللاّهاتك) صلواتُ الربّ عليها وعليكْ ..
عالمُ حبّ أخضرُ تستوطنُ فيه غُنّةُ شفتيْكْ ..
غيمةُ مزْن تنهلّ بلبيكَ ، ولا تخرجُ من شفتيكَ ، ولكن تتشعّبُ فيه رؤيةَ عينيْكْ ..
ما كانتْ رقّاصَ الساعةِ حين تدقّ الأجراسُ تصيرُ الساعاتُ مواويلا تترشفُ من لجةِ مأساتكْ ..
ما كانت «صلوات في هيكلِ حبّ» صلواتُكْ ..
ما كانتْ أسطورةَ عشق في (مكةَ) مأساتُكْ ..
ما كانتْ حبقةَ معشوق في إحدى الشرفاتِ تؤثّثُ فيها رغاتكْ
ماكانتْ بيتا بحريًّا تسكنُه نسماتُ الذكرى ، وجلالُ الشوقِ ، وسبعُ أميراتْ ..
(مأساتُكَ) ما كانتْ خصلةَ شعْر عربيّ لفتاة سوداءِ العينينِ ،

وسمراء النعمة ، هيفاءَ ولا عجَفٌ فيها ، نَجْلاَء ولا شبقٌ فيها ، يتعشّقُهَا الشُّعَرَاءُ ..

ما عَفّتْ يوما عنْ شِعْرٍ ، ما غابتْ يوما عنْ فجرٍ ،
ما سكنتْ يوما إلاّ في خيمةِ سِحْرٍ ،
ما رقصتْ إلاّ والشمسُ أَصيلْ ..
ما غنّتْ الاّ واللّحنُ هَديلْ ..
وجمالٌ – لنْ يصمدَ قدّامَهُ أيّ جميلْ ..
افتعشقهُ ياكلّ بلالْ ؟! ومنَ العِشْقِ ضلالْ .؟

* * *

3 – (دلال) من نوع آخر (*)

(مأساتُك) ما كانتْ هَمْسَةَ ثغر ورديّ الشفتينِ بغيرِ طلاء ، يتبرّجُ
عن صفّينِ من الثّلجِ ،
على ضَحِكِ الزّنْجِ ، وأنغامِ الرقصِ الإفْرَنْجي ،
(مأساتك) ما كانتْ دفءَ امرأة تتبخترُ في جسد صحراويٍّ
نَاريّ الأَهْوَاءِ ..
تفجّرَ عاطفة خضراءَ ، مشاعرُها ساحاتٌ للرقص الليليّ
مع الغرباءِ ..
وعلى شاطىءِ بحرِ العنفِ ، ونوعِ الصّرْفِ ، وجنسِ الظّرفِ ،
المغموسُ باحشاءِ الغامسِ كحنينِ العانسِ لاستنزافِ الأشياءِ الأخْرَى ..
(مأساتُك) حينَ تكبّرُ باسمِ (دلال) معصور ، مقطور من أزهارِ الشوكِ
تَكونُ الأرضُ قد ابتدأتْ في الإسرَاءْ

(*) إشارة إلى « دلال مغربى » الفدائية الفلسطينية .

من شرقِ بلالِ تسري الارضُ إلى غَرَبِ(دلال)، تغري لكن لا تعرف ما معنى الاغـراءْ ؟

آخـرُ نوعِ (دلال) يظهرُ في دنيا الثَّوارَاتِ الكبرى ..

افتعشقـه يا كُلَّ بلالْ ؟! ومنَ العشقِ ضَـلالْ .؟

★ ★ ★

4 ــ تقرير سرى عن عشاق الركوع !

(مأساتُك) مـا كانتْ تعبيـرا عن أفكارِ أمير صنهاجيِّ العشقِ ، ولا أمويِّ الفتنةِ والتَّوْقِ ، ولا عباسيِّ التنكيلِ ، زجاجيِّ الذَّوقِ ، «هلاكيِّ» الشـوقِ إلى الهجمـةِ منْ فوقِ الجِسْرِ المائيِّ المَبْنِـيِّ مِنَ الكتبِ العربيةِ ما مرّ الجندُ عليها، بلْ مَرَّ الجندُ اليها،مسلوبَ الخاطرِ واللبِّ،

وعطشـانَ الوُجدانِ لنَهْرِ الحُبِّ ، فَمَا هذا الحـرمان ؟!

قد باتَ (هُلاكُو) عطشـان

لكنه إذْ أصبحَ أصْبحَ .. جسْمـا ، يتدلّى للموجةِ من حبلِ الشـوقِ ..

خيـاميَّ الليـلِ ، نـواسيَّ التَّـوقِ ..

و «يُديرُ الليلـةَ خمـرًا ، وغـدا أمـرًا» ..

مـا أتفـهَ مرسوما سِرِّيًّـا لمديرِ الإستعلاماتِ إلى امرأة سمـراء !

ما أخْطَرَ برقيَّة عشق ! تحملُه لمواعيدِ ليالي الوسْكِي ..

مع ضابطـة حسناءَ تقومُ على أجهزةِ اللاّسلْكِـي ..

أفـأعشقُها يا كلَّ بلالِ لتصيرَ الارضُ المحتلةُ ...؟ وكـأنَّ الأرضَ المحتلةَ ماكانتْ ملكي !!

يـا عيني شـاهـدت المـأسـاةَ ولم تبكِـي ! ؟

وليالي الوسكي قد كانتْ سيلا ، ومن الحبِّ سيول !

فالضابطةُ السمراءُ لقدْ كانتْ فرعا ، ومن الفرع أصولْ !
وانا أولُ أصل قد بايَعَ خُلفاءَ القرنِ العشرين ولكنْ
بصلاة منْ غير ركوعْ ..
ما زلنا في القرن العشرين مسارا ، والقفزُ شموليُّ
الخَطوِ ولكنه دربٌ بعظامِ السيقان المقطوعةِ مقطوعْ ..
فأذانكَ قبلَ طلوعِ الشمسِ (شموعْ)
خطواتُكَ (إتمامٌ) من غير شروعْ ..
قفزاتُكَ (إقلاع) من غيرِ رجوعْ ..
الركنُ الأولُ تكبيرتُهُ الأولى (الجوعُ يموتُ الجوعْ !) ..
والركنُ الثاني منْ كلِّ صلاة (رأسُكَ مرفوعْ) ..
لا رفعَ الكفينِ أسيرا مشدودا للصّفْ ..
ولصرخة شرطيٍّ التّفتيشات متى تعبُرُ للأهلِ :(ألاَ قِفْ !) ..
اللاّهاثُكَ قبلَ الاحرام (تُحرّمُ كلَّ ركوع) الانسانِ الى الإرْكاعْ ..
ما ألغتَ غيرَ (سوادِ السّوقِ وفيها الإنسانُ يباعْ !)

* * *

5 ـ فجرآت على حدود الشريان ..

أذّنْ في الموج على رأسِ النسيانِ الآتي ..
فسكوتُكَ يؤذيني ، وأذانُكَ يؤذي ساداتي ..

أذّنْ في الليلِ على حدِّ الشريانِ معَ السكينِ فما عَمِيتْ قرنيةُ القرنِ العشرينْ ..

لكنْ صادرَها أحفادُ صلاحِ الدينِ ، وأحفادُ جوادِ
صلاحِ الدينْ ..

أذّنْ في اللّيلِ : «ألاَ مَنْ يدخُلْ في ديني ، يتوضّأْ من أمواجِ شراييني»..

«يشهدْ أنّ الركعةَ إذلالٌ ، والسجدةَ إذلالٌ ، وإلهَ بـلالْ،
لاينبتُ في الـذّلّ ..»
«لا يعشقُ في الـكلّ سوى زَنْدٍ لا تَرفضُ إلاّ الغُلْ ..»
مِنْ بيـنِ سـواد الغَيْمِ ، ورعدِ الضَّيْمِ ،
وبرق يتنزّلُ منه الرفضُ الشعبيُّ الناسخُ وجـهَ المحتـلْ ..
مع فجر آت يـاتي .. الجيلُ المؤمنُ بالذات ..
لايبزغُ من شرقِ شتـاتِـي .. لـكنه يُشرقُ مِنْ صَمَد يَلْحَمُ باللّهَب
الفجـوَاتِ ..

* * *

6 ـ حصار والبذور حصاد الآتي ..

مَـنْ حَـاصَرَنِي خَـارجَ أفكَـارِي ..
لايعلمُ أنّ حصارَ الفكرةِ تحريرٌ للفكرِ ـ المبحرِ وفَوْقَ
التيّـار ـ مِـنْ التيّـارْ !
الفكرةُ فينا نابتةٌ لكنْ لنْ تُورقَ مِنْ غيرِ حِصَارْ ..
كالبرعمِ حينَ يكونُ . يحاصرُ قبلَ تفتّقه بالكمّ الأزْهارْ
مَنْ بثَّ بذورَ الشوكِ على خِصْبِ الأَبعَـادْ ..
كالبرعـمِ حيـنَ يكونُ . يحاصرُ قبلَ تفتّقه بالتّاجِ الأزْهارْ
مَنْ بثَّ بذورَ الشوكِ على خِصْبِ الأبعَـادْ ..
لايعلـم أنّي للشوكةِ كالمحراث ، انا المنجلُ والحصّادْ ..
منْ حاولَ إغرائي بالزرع .. ألاَ يعلمُ أنّ الزرعَ بدايةُ
تفتيــقِ القشــر .. خروج النبتِ منَ الأصفـادْ ؟!
مَنْ سافرَ بي لجزيرةِ حبٍّ مشبوه ، لا يعلمُ أنّي أسطيعُ
بـأنْ أحيـا مِنْ غيرِ فـؤادْ .؟

لاكنتَ فُؤادي يا لوْ يسجدُ فيكَ الحبّ لغير الشهداءِ الأمجادْ
السجدةُ في محراب الحبّ لجثمانٍ محمول في بطحاءِ
الحلاّجِ على الأوتادْ
مِنْ أمجدِ ما مارستَ فؤادي ، كم سافرتَ كثيرا ، وتحمّلتَ
الغربةَ في صخبِ الاحبابِ!؟ وكمواجهتَ الجوعَ بلا زادْ . !؟
.. والوحشَ الكاسرَ في جزر الخبز بغيرِ زنادْ .!؟
كجميعِ الموقوفين وراءَ القضبانِ وفي كلّ بلادْ ..
أفؤادي يا منْ واجهتَ التغريبَ الباغِي ..
عيناكَ وفي جدرانِ السَّلب تغُوصَانِ بَرَاغِي ..
ويداكَ على القضبانِ شفاهٌ باسْمِ الشمس تُناغِي ..
ومُناغاتُكَ لا تُفرغُني لكن تملأ صحراءَ فَرَاغِي ..

* * *

7 ـ أبو بكر يصلي معي ، ولا يركع ..

وانا مازلتُ ، نعمْ ، اسكنُ في حلقِ بلالْ ..
مازالَ ابو بكرٍ يتَقَدّيني في ديني ..
وصلاتي ، وحياتي ، يتوضأ من أمواج شراييني ..
ويقيمُ معي صلواتي .. ويُصلّي مِنْ غير ركوعْ ..
ويسبّحُ مِنْ غير دموعْ ..
حبّاتُ المسبحةِ انسابتْ شلالا من عَرَقِ الزّنْدِ الينبوعْ ..
هل تعرفُ ماذا يحدثُ لو ينفَجرُ الينبوعُ المَمْنُوعْ .؟
أتوضّأ منه ، لأعيدنّ وضوئي ..
لأُقيمنّ صلاةَ الغائبِ في محراب هدوئي ..
لا أجْهَرُ إلا بالممنوعات .. ولا ألغي غيرَ ركوعِي .. وسكوتِي ..

وأقيمُ صلاةَ الفجرِ وألغي دَعَوَات قنوتي ..
عَنْ كلِّ دُعاء أتنازلُ ، وأبيتُ ولو من غيرِ اطمئنانٍ خاطرة في ذهـنِ الظلمَـه ..

تعتزّ بمن يتعرّى في الشمسِ لها ، لأنين الصخَبِ النابعِ من جرحِ الأمَّـهْ

الأمةُ لا تتنازلُ عن إنزالِ غيومِ الغيثِ على ورق الإمحال ، على ابوابِ الحصْرِ ،

أمازال العرجون النابتُ فوقَ الجذعِ السامقْ ؟
يتباعدُ عن منبته كضميرِ الفاسقْ ؟

يتقرّبُ للرأس الباسقِ ؟/ كخيالِ عشيق للعاشقْ/، كالثغر الباصق في وجهِ الإنسان الغارقِ في عبثِ الانسان الآخرْ ..؟!

* * *

8 ـ قصيد للفسخ في حانة مدريد

ويعودُ بلالُ الرافضُ وجهكَ ياسيفَ الدولة ، للصخرة والسوط يفكُّ الاغلالَ ..

ويعود الوجهُ البكرُ .. الصوتُ الحرُّ ..
تأملْ .. لا تصرخْ فيه: «ألا اخسأْ أنتَ فلست بلالا» ..
فانا وجميع الشعراءِ ورائي .. أصبحنا اليومَ بلالا .
سنُؤذّنُ ، والتاريخُ يُسيِّرُ كلّ بلال دفّتَه عكسَ التيار الجارفْ..

مازال التيارُ يواجه كلّ بلال زمن الإبحار الآزفْ .
نحن الانسانَ ونبحرُ صفعَ الانْذارِ .. ورغمَ التطويقِ .. ورغمَ قراراتِ التلفيقِ .. ورغم قرارٍ .. قرارٍ .. قرارْ ..

إنَّا أبحرْنا مِنْ فوهةِ هذا البركانِ الموقوفِ وراء الآبارْ العربيهْ .
نا أبحرْنا ما أمجدَ لحظاتِ الإبحار لِصُنع هُويه ْ !
في حانةِ مدريدْ ..
إنّا نادمْنا (ابنَ بطوطةَ) .. سامرْنا (التيجاني) وضربنا
للقاء الفجر مواعيدْ ..
وأعرْنا السبابةَ للمتنبّي ليقوم بفسخ قصيد ، في اثر قصيدْ ..
المتنبّي هل أصبحَ يتبرّأ من سيفِ الدولة ؟ من شعره في سيفِ الدولةِ ؟

من ديوانِ التمجيدْ .؟

لا يتبرّأ إلاّ مِنْ مدْحِ عبيدْ . قد صاروا أسيادَ الساداتِ ،
أما زالَ العبدُ بسيِّدهْ ؟
والسّيدُ مَنْ يحكُم مِنْ غير عبيدْ ؟
لايتبرّأ الا من عيد ما عادَ بأمر جدٍّ جديدْ .

«عيدٌ وبأيةِ حال قد عُدتَ أيا عيدْ ؟»

«أبِما قدْ يحلُو ؟ أمْ مُرٌّ فيكَ التجديدْ !؟»

الصادق شرف
(أبو وجدان)

نحو تخطيط تربوي للعالم الاسلامي

بقلم : د. محمد فاضل الجمالي

التخطيط عبارة عن اختيار المقاصد وتعيين الاهداف المراد بلوغها ثم تهيئة الوسائل والظروف المطلوبة لتحقيق تلك المقاصد والاهداف .

والتخطيط عملية حياتية قد يحتاج اليها الانسان فى كل أدوار عيشه . فالمرء قد يخطط لكسب رزقه وقد يخطط لبناء دار أو الاقتران بزوج أو القيام برحلة الى غير ذلك .

وكما ان الفرد يفكر ويخطط لادامة حياته كذلك الدول والجماعات . فالدولة قد تخطط لانشاء مدينة أو فتح طريق عام أو بناء سد أو جسر أو جامع أو مدرسة الى غير ذلك . ان تخطيطا من هذا النوع هو تخطيط بـ « القطعة » أى عبارة عن انجاز مشاريع مفردة ومستقلة .

أما التخطيط الحديث فهو الذى يتصف بالشمول والترابط بين نواحى الحياة الانسانية فى كل نواحيها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والصحية والروحية .

وما التخطيط التربوى سوى الاساس الذى يبنى عليه كل هيكل التخطيط الشامل . اذ ان الجهاز التربوى هو الذى يخرج ذوى الاختصاص فى كل ناحية من نواحى حياة الانسان المعاصر. فالادارى والقاضى والطبيب والمزارع والتاجر والصناعى والاديب والعالم والمعلم كلهم مشمولون بالتخطيط التربوى وهم بدورهم يتولون تخطيط نواحى الحياة كلها وفى جميع جوانبها .

والتخطيط الحديث يتطلب اتباع اساليب علمية فى تسيير شؤون الحياة كما يحتاج فى عصرنا هذا الى تنظيم دقيق واستعمال أجهزة الكترونية. والمخطط فى البلاد ذات النظم الديكتاتورية يفرض على الشعب من قبل هيئة عليا . وفى البلاد ذات النظم الدمقراطية يخضع لمبدأ الشورى إذ تعرض الخطة

(لعدد محدود من السنوات) على الرأى العام وعلى ذوى الرأى والخبرة ليبدوا رأيهم فيها قبل الشروع فى التنفيذ .

ومن مزايا التخطيط الشامل أنه يحقق للبلاد النامية نهضة سريعة ومتكاملة ؛ **ذلك اذا توفرت أجهزة حكم نيرة وأجهزة تنفيذ مخلصة وماهرة** ، ولماكان العالم الاسلامى اليوم يتوخى النهوض السريع والقضاء على التخلف . ولماكانت الانظمة التعليمية التى ورثها من المستعمر أو اقتبسها من الغرب بصورة استعجالية تتطلب اعادة نظر أساسية فنحن نقترح أن تكون اعادة النظر هذه مبنية على قواعد التخطيط الشامل .

إن نجاح التخطيط التربوى للعالم الاسلامى يتطلب فى نظرنا الاخذ بالمبادىء التالية :

(أ) تعيين وتحديد أهداف التربية الاسلامية بوضوح تام.والتعبير الصادق عن الروح التى يراد لها أن تسود فى هذه التربية .. وهذه الاهداف وهذه الروح ينبغى ان تنبثق عن اتحاد المبادىء الاسلامية مع أصدق وأفضل ما توصل اليه العلم الحديث والتقنيات الجديدة .

(ب) توفر زعامة سياسية وتربوية مشبعة بالمبادىء الاسلامية وملمة بحقائق العلم الحديث وشؤون الحياة الانسانية فى عصرنا هذا .

(ج) توفر العلماء والخبراء الفنيين فى شؤون التربية والتعليم ممن يؤمنون بالله ويعرفون مشاكل ومطامح العالم الاسلامى فى عصرنا هذا بالاضافة الى منزلتهم العلمية وخبرتهم .

(د) توفر جهاز إحصائى حديث يحتوى على تسجيل صادق للسكان (من قبائل الى ارياف الى مدن) مع الحقائق المطلوبة عن أوضاعهم من حيث السن والجنس والمهنة والدخل الخ ... فالتخطيط ينبغى ان يدخل فى الحساب النمو الطبيعى للسكان والدخل القومى والنمو الاقتصادى بحيث يمكن بلوغ اهداف معقولة للنمو الكمى على مراحل .

(هـ) توعية المسؤولين والجماهير بأهمية التخطيط وحثهم على تعبئة قواهم وامكاناتهم فى سبيل بلوغ الاهداف .

(و) التعاون المتبادل فيما بين الدول الاسلامية : إن بعض الدول الاسلامية محظوظة بتوفر ثروات طبيعية هائلة لديها بينما هناك بلاد اسلامية اخرى فقيرة في الثروات الطبيعية محظوظة بالثروة البشرية. ولذلك فالتعاون المتبادل بين الدول الاسلامية قد يصبح نافعا جدا . وإن جو الاخاء والثقة المتبادلة بين الدول الاسلامية قد يساعد على توفير مبالغ ضخمة من واردات البترول تنفق فى تحقيق المخططات التربوية فى العالم الاسلامى .

أهداف التربية الاسلامية :

نحن نقترح الاهداف التربوية التالية آملين ان تحظى اقتراحاتنا هذه بالدرس والرعاية من قبل المسؤولين عن شؤون التربية فى العالم الاسلامى:

(1) كل عمل تربوى فى العالم الاسلامى ينبغى ان يستمد هديه من الايمان بالله تعالى . فالله سبحانه هو مربى المربين . وعلى التربية الاسلامية ان توقظ الوعى الروحى فى الجماهير الاسلامية وان تساعدهم على ادراك ان هذا الكون الذى خلقه الله لم يخلق عبثا بل هو ناشىء عن قصد إلهى . وان المطلوب من الانسان الذى هو أفضل مخلوق على هذه الكرة الارضية أن يقوم بدوره فى تحقيق مشيئة الله وذلك باتباع طريق الفضيلة والمعرفة والحكمة والانجازات الخلاقة . فحياة الانسان اذا تشبعت بالايمان تصبح ذات قصد ومعنى .

ومن ابرز نواحى الضعف فى النظم التربوية الشائعة فى العالم الاسلامى تقصيرها النسبى فى غرس الايمان فى النفوس . الامر الذى يترك فراغا عقائديا فى حياة الاجيال الناشئة وهذا الفراغ تملؤه العقائديات الزائفة التى تغزو المجتمعات الاسلامية .

(2) نشر الفضائل الاخلاقية يكون الهدف الثانى للتربية الاسلامية بعد غرس الايمان بالله . فالمطلوب من المسلم أن يتحلى بالفضائل الاخلاقية الكريمة التى نص عليها القرآن الكريم ومارستها السنة النبوية الشريفة . إن اعتقادنا الراسخ الذى هو نتيجة خبرة ودراسة تزيد على النصف قرن هو ان المجتمعات الاسلامية لن يتسنى لها النهوض الصحيح الا بتربية اسلامية تؤسس على الايمان والفضيلة معا .

(3) إن كلا من الايمان والفضيلة يقودان الى الحياة الدمقراطية. فالدمقراطية الى جانب كونها اسلوبا أو نظاما فى الحكم فانها ينبغى أن تصبح هدفا من أهداف التربية الاسلامية . ذلك لان الدمقراطية باسمى معانيها تعنى

الشورى والمشاركة فى التفكير والتخطيط والتنفيذ من قبل كل الافراد الذين يشكلون جماعة موحدة المصالح والاهداف . والشورى كما هو معلوم هى من أسس التعاليم الاسلامية . ولـذلك فالدمقراطية ينبغى ان تمـارس فى البيت وفى المدرسة وفى المشاريع الاقتصادية وفى تسيير شؤون الدولة وهى تتطلب التقدير والاعتراف المتبادل بين اعضاء الجماعة على اختلاف مستوياتهم . انهـا تستخدم اسلوب الحوار والمحاكمة العقلية وتزن الحقائق والمصالـح التى تهـم المجموع . إنها تستهـدف تحقيـق « الخيـر الاعظـم للعـدد الاكبـر » من الافراد . ثم إنها تقرن حق الفرد بالحرية والكرامة بدرجة تحمله المسـؤولية إزاء الجماعة . فلا حرية بلا مسؤولية .

(4) ومن الهدف الدمقراطى فى التربية الاسـلامية ينبـع هـدف العـدالة الاجتماعية . فالتخطيط التربوى ينبغى ان يؤسس على مبدأ العدالة الاجتماعية وذلك بتهيئة فرص تعليمية متساوية لكل افراد الجماعة بدون تمييز أو تحيز على أساس الرس أو اللون أو الطائفة الدينية أو الجنس أو الطبقة الاجتماعية أو المحسوبية والمنسوبية أو الموقع الجغرافى أو المستوى الحضارى .

فابناء القبائل وابناء الريف ينبغى ان تهيأ لهم الفـرص التعليمية ذاتهـا التى تهيأ لابناء المدن . والمرأة ينبغى أن تحصل على فرص فى التربية والنمو تساوى ما يحظى به الرجل .

(5) ان التخطيط التربوى ينبغى أن يستهدف تنمية الولاء والصفاء وروح التعاون والتعاطف بين ابناء الأمة . فالولاء والصفاء فى داخـل الاسرة وبين افراد المجتمع وبين المواطنين والدولة وبين الاخوة المسلمين فى شتى انحـاء المعمورة وبين بنى الانسان فى كل مكان ينبغى ان يكون من اهداف التربية الاسلامية ، فالعالم الاسلامى اليـوم يعـانى من آلام الخلافـات والانقسامـات وفقدان الانسجام بين افراد العائلة الواحدة وبين ابناء قطر واحد وبين دولة اسلامية واخرى . إن عوامل التفرقة قد تكون مفتعلة أحيانا وقد يدسها العدو بطرق شيطانية غير مباشرة . فالمطلوب من التربية الاسلامية أن تستهـدف الحياة الاسلامية التى يسودها الاخاء والصفاء وأن تنمى الولاء للاسرة وللامـة ولأولى الأمر .

(6) التخطيط التربوى الاسلامى ينبغى ان يستهدف بصورة أكيـدة نشر العلوم الحديثة والتقنيات بين المسلمين . فبالعلم الحديث والتقنيات يتخلص المسلمون من رواسب التخلف وينتقلون من عصر ما قبـل العلـم الى عصـر

العلوم الحديثة فى المستوى المعاشى والحضارى . التخطيط التربوى ينبغى أن يعمل على غرس حب البحث عن الحقيقة بين المسلمين بحيث يسر الفرد المسلم وينشرح بكل معرفة جديدة وبكل اكتشاف .

(7) والتخطيط التربوى الاسلامى ينبغى ان يستهدف تامين الصحة والسلامة الجسدية والعقلية بين المسلمين كأفراد وكجماعات ، فيجب أن يؤكد على أهمية النظافة والتغذية المتوازنة والرياضة البدنية والراحة لضمان الصحة والنشاط . كما يؤمل غرس مقاومة الدخان والكحول والمخدرات والعلاقات الجنسية المحرمة باعتبارها ضارة بالصحة العامة للافراد والجماعات. وربما كانت الفرائض الاسلامية وفى مقدمتها الصلاة والصوم من أهم مقومات الصحة الجسدية والنفسية ولذلك فالتخطيط التربوى الاسلامى ينبغى ان يؤكد على ممارسة الفرائض الدينية .

(8) التخطيط التربوى الاسلامى ينبغى ان يستهدف جعل كل افراد الامة عاملين ومنتجين بحيث يضيف كل فرد من ابناء الامة حسب طاقته ومواهبه الى ثروة المجتمع ورفاهه . يجب ان يربى الجميع على مزاولة العمل اليدوى واحترامه ، فالذين يشتغلون بأيديهم ينبغى ان تهيأ لهم الفرص ليتمتعوا بالحياة الفكرية والجمالية . والذين يشتغلون بادمغتهم ينبغى ان تتاح لهم الفرص ليتمتعوا بالاشتغال بأيديهم . فلا امتيازات ولا محاباة لاصحاب « الياقات البيضاء » فى المجتمع الاسلامى .

(9) ان التخطيط التربوى الاسلامى ينبغى أن يشجع التمتع بالفنون الجميلة بحيث يصبح الشعر والرسم والموسيقى والتمثيل فى متناول الجميع كما ينبغى أن يعنى بالسمو والابداع فى هذه الفنون . فالموهوبون ينبغى ان تتاح لهم الفرص لينموا مواهبهم وغير الموهوبين لهم ان يتمتعوا بالفنون الجميلة التى تتسم بالسمو والكمال والحيوية وان تشجب الفنون التى تتسم بالميوعة والتخنث أو التى تشجع اليأس والبؤس والبكاء .

ولما كانت المجتمعات الحديثة تتمتع بفضل التقنيات بأوقات فراغ وعطل تشكل جزءا هاما من حياة الفرد المعاصر فيصبح التمتع بالفنون الجميلة وممارستها من أهم النعم التى ينعم بها الانسان فى المدنية الحديثة ذلك الى جانب أعمال مفيدة كالبستنة أو الالعاب الرياضية أو الاعمال الحرفية أو الهوايات النافعة كالمشاريع والخدمات الاجتماعية أو التمتع بجمال الطبيعة والقيام بالرحلات الكشفية والاسفار والمطالعة الحرة الى غير ذلك .

(١٥) إن التخطيط التربوى الاسلامى ينبغى ان يستهدف جعل المسلمين يدركون بأنهم يعيشون فى عالم واحد . فقد ذابت المسافات وتشابكت المصالح بين الامم والشعوب وقامت المنظمات الاقليمية والدولية لتنظم التعاون والتلاقى بين الدول على أساس البر والتقوى ومقاومة الاثم والعدوان . وهذا الجو الانسانى الجديد يقدم فرصة للمسلمين بأن يقدموا للانسانية القدوة الحسنة فى حياتهم وفى معاملاتهم فيما بينهم ومع غيرهم من الامم والشعوب وهذه الفرصة تلقى على عاتق المسلمين مسؤولية حمل رسالة الاسلام الانسانية الى البشرية كافة . وهذا اسمى ما تصبو اليه التربية الاسلامية الحق .

بعد ان استعرضنا بصورة موجزة الاهداف المقترحة للتخطيط التربوى الاسلامى ها نحن فيما يلى نقترح بعض الوسائل والاساليب التى يمكن ان يستعان بها فى تحقيق الاهداف المار ذكرها أعلاه :

(١) الاخذ بمبدأ الشمول والترابط والانسجام فى تحقيق الاهداف : فحياة الانسان الصحية والعقلية والاجتماعية والعلمية والجمالية والاخلاقية والروحية والعملية ينبغى ان تكون كلا موحد . وينبغى ان تكون تنمية الفرد كشخصية موحدة منسجمة فى داخلها ومنسجمة مع المجتمع الذى يعيش فيه . ومع أن التربية تكون متعددة الجوانب وتشتمل على الدرس والعمل واللعب والتعبير المبدع والعبادة التى يمارسها كل فرد من الافراد فان هذه الافعال تكون وحدة متكاملة هى شخصية الفرد ضمن شخصية أكبر هى شخصية الامة .

(٢) الاعتراف بالفروق الفردية والقابليات والاولاع الخاصة لدى الافراد ينبغى ان يحسب حسابه فى تخطيط كل النشاطات والبرامج التربوية للافراد والجماعات . ينبغى استثمار المواهب الخاصة لدى الافراد كما ينبغى مراعاة الظروف الخاصة والاحتياجات التى يتطلبها بعض الافراد .

(٣) المشاركة فى الافعال وفى الحوار بين جماعات الطلاب وبينهم وبين مدرسيهم ينبغى ان تصبح الطريقة المعمول بها فى التعليم فى المواضيع الاجتماعية والعملية والفنية والدينية . فينبغى تشجيع العمل المشترك التعاونى .

(٤) الى جانب العمل التعاونى ينبغى تشجيع العمل الفردى المستقل فى المطالعة وفى البحث وفى الدروس التى تتطلب مهارات خاصة كما هو الحال فى الحسابات واستعمال الآلة الراقنة أو البيانو . هذا وان التربية الحديثة تؤكد على تنشئة الفرد على الاستقلال الذاتى فيعمل على تربية نفسه بنفسه

وينمي معارفه ومهاراته بنفسه . أما المعلم فيقلل من دور التعليم ويتولى توجيه الطالب وارشاده الى المراجع ويصحح له اخطاءه على الاكثر .

(5) إن الجو التربوي ينبغي ان يسوده التعارف والتآليف بين الطلاب والمدرسين فيصبح شبيها بالجو العائلي . والعلاقة بين المدرسة وأولياء الطلاب ينبغي أن تكون علاقة تعاون وتفاهم دائمين لخير الطلاب .

(6) المسؤولية والشعور بالواجب ينبغي ان يصبحا شعار كل الذين يتولون شؤون التربية الاسلامية . كما ينبغي تشجيع الطلاب على ادارة شؤونهم بانفسهم على قدر المستطاع مع تحميلهم المسؤولية وهذا يعني مشاركتهم في شؤون الحياة المدرسية بما في ذلك الانضباط الذاتي واقتراح كل ما من شأنه حفظ النظام وضمان حسن سمعة المدرسة . فلا يجوز في نظرنا الاخذ بمبدأ « التربية الرخوة » . ينبغي تشجيع « الفحص الذاتي » و « النقد الذاتي » وان يصبح « البروز » و « التفوق » للفرد وللجماعة هدفا لكل فرد.

(7) نحن نقترح ان يدرس بجد موضوع الغاء الاقسام (الصفوف) وأن يصبح التعليم في البلاد الاسلامية « افراديا » إن نظام الصفوف (الاقسام) الذي اقتبسناه من الغرب يتطلب ان يسير الطلاب جميعا بسرعة واحدة وان يدرسوا جميعا الدروس عينها لمدة محدودة وان يجتازوا امتحانا واحدا آخر السنة الدراسية . ومن يرسب يعيد السنة أو يطرد وفي ذلك خسارة جسيمة للخزينة وللفرد . خسارة مادية ومعنوية .

ففي التعليم الافرادي يسير كل طالب في الدراسة بالسرعة التي تناسبه فليس أمامه رسوب أو اعادة السنة . فانه يستمر على دراسة الموضوع حتى يتمه ويتقنه وكل طالب يكون مسؤولا امام المدرس عن المواضع التي تعهد القيام باتقانها . إن افرادية التعليم هي ظاهرة جديدة في بلاد الغرب ولكنها بالنسبة للعالم الاسلامي هي عودة الى الاصول . فان التربية الاسلامية في عصور ازدهارها كانت تربية افرادية الا في المحاضرات العامة أو الخطب الجمعية .

(8) ان الأثاث والادوات التربوية ينبغي ان تتكيف وتتطور وفق البيئة الطبيعية ووفق الظروف المادية للدولة . فليس من الضروري صرف الملايين من الدنانير على بناء مدرسة قروية كما شاهدت ذلك في احدى قرى المانية الغربية . ففي عالمنا الاسلامي يمكن ان يجرى التعليم في خيمة أو في غابة أو في فناء مسجد تحت الاشجار . اذا كانت الموارد المادية شحيحة يجب التكيف وتوخي البساطة .

وقد عمل كاتب هذه السطور على تأسيس نماذج لمدارس للقبائل البدوية فى العراق (فى الثلاثينات من هذا القرن) حيث يجرى التدريس فى خيمة وهذه تحمل على ظهور الجمال وترافق القبيلة فى حلها وترحالها . كما يمكن ان يجرى التدريس فى ظل شجرة باسقة على احسن وجه . وتجربة المدارس فى الهواء الطلق معروفة ولها دعاتها .

وبدل المقاعد والقماطر الثابتة المعمولة من الحديد والتى تكلف الخزينة مالا باهضا يمكن استعمال كراسى خفيفة تطوى وتحمل كما يمكن استعمال حصر ووسائد فى بعض الحالات . المهم أن نعنى بالمحتوى التربوى وبالجوهر . أما الوسائل فانها قابلة للتكيف والتطور حسب البيئات وحسب الامكانات .

إن الوسائل السمعية البصرية ووسائل الايضاح ضرورية فى التدريس . ولكنها يمكن ان تصنع محليا فى العديد من الحالات بدل ان تستورد من الخارج وتثقل كاهل الخزينة ولا سيما فى البلاد غير الثرية بالبترول .

(9) حيث تتوفر الموارد المالية يمكن تأسيس مجمعات تربوية تتكون من مبان دراسية وورشات عمل ومزرعة وساحات لعب ومسجد وقاعة اجتماع . يشغلها كلها الطلاب بالتناوب والتعاقب فبينما تشغل جماعة ابنية الدراسة يشتغل آخرون فى المعامل وفى المزرعة وجماعة ثالثة فى الرياضة البدنية وجماعة رابعة فى قاعة الاجتماع وعند انتهاء الوقت المحدد يتناوبون ويتعاقبون فى اشغال المرافق . فالبناء الدراسى الذى يتسع لثلاثمائة طالب فى الوقت الواحد يمكن ان يستخدم لستمائة او تسعمائة طالب . ويبقى الطالب مشغولا طوال النهار فى المرافق المختلفة بين المجمع التربوى .

من الأمور المألوفة فى البلاد النامية ان تشاهد بناء فخما يبنى ليكون مدرسة ولكنه يبقى خاليا فى ساعات عديدة فى اليوم وفى شهور عديدة من السنة وفى هذا تبذير ولا شك . فالتخطيط التربوى للعالم الاسلامى ينبغى أن يؤمن الاستفادة الكاملة من المبانى والتجهيزات بحيث يستفاد من البناء ليل نهار . فبعض الطلاب يدرسون نهارا . والطلاب الذين يساعدون أولياءهم فى كسب الرزق والراشدون قد ترتب لهم دراسة ليلية . كما يمكن الاستفادة من المبانى فى العطل المدرسية .

(١٠) الاخذ بنظام التعليم التعاونى: ففى العديد من البلاد الاسلامية لم يتوفر العدد الكافى من المدرسين الاكفاء . ففى هذه الحالة يمكن ايجاد هيئة تعاونية من المدرسين ذوى المستويات المتفاوتة . يقود الهيئة اقدر المدرسين أو

« المعلم الاول » فيخططون الدروس معا ثم يتولى كل مدرس تنفيذ ما يودع اليه من التدريس وفق الخطة المتفق عليها تحت اشراف المعلم وبمساعدته . فالمعلم القليل الخبرة أو الضعيف فى المستوى العلمي يقوم بالتدريس باسعاف « المعلم الاول » . وعملا بالمبدأ ذاته يمكن الاستعانة بالطلاب المتفوقين فى مادة ما ليساعدوا زملاءهم من الطلاب المتخلفين فى شرح مادة الدرس الذى يلقى عليهم وحل المسائل التى تعسر عليهم .

إن النظام التعاونى فى التدريس هذا هو من أحدث ما توصل اليه الفكر التربوى فى السنوات الاخيرة مع أنه بالنسبة للعالم الاسلامى ليس بالامر الجديد فالتربية الاسلامية فى العصور الغابرة عملت بهذا الاسلوب .

(11) الخدمة التعليمية بدل الخدمة العسكرية : فى ظروف لا تكون فيها الخدمة العسكرية ملحة لسلامة الوطن يمكن الاقتصاد فى نفقات التعليم وذلك بتشريع قانون يأذن لذوى المؤهلات العلمية من خريجي الثانويات أو الجامعات بأن يؤدوا خدمة تعليمية بدل الخدمة العسكرية كلا أو جزءا . فخريجوا الثانويات أو الجامعات يمكن أن يحصلوا على دورة فى أصول التربية والتعليم فيعهد اليهم التدريس فى المدارس الابتدائية أو الثانوية أو ان يقوموا بتدريس الراشدين وذلك بدلا من الخدمة العسكرية كلا أو جزءا .

(12) اعداد الدروس والواجبات المدرسية فى المدرسة : لما كانت بيوت العديد من الاطفال وحياتهم العائلية لا تؤمن لهم الجو الملائم للدرس واعداد الواجبات المدرسية نقترح تخصيص ساعات للمطالعة واعداد الدروس فى داخل المدرسة وتحت اشراف المدرسين والمدرس المشرف أو (المراقب) قد يساعد الطلاب الذين يجابهون مشاكل خاصة فى دراستهم .

(13) ملاءمة العطل المدرسية مع البيئة الطبيعية والحاجات الاقتصادية . فيمكن جعل العطل صيفية أو شتوية حسب أوضاع الطقس لكل اقليم . ففى الاقاليم الجبلية حيث تكثر الثلوج وتنقطع المواصلات قد يفضل ان تكون العطلة شتوية . وفى المزارع حيث يحتاج الآباء الى سواعد أبنائهم أيام الحصاد أو قطف الزيتون مثلا يمكن ملاءمة العطل مع المواسم الزراعية .

(14) تقليص البورقراطية وكثرة المراجعات وذلك باشاعة اللامركزية على قدر الامكان واعتبار المعاهد التربوية ذات استقلال ادارى وتربوى لانها تمثل مجتمعات يوثق بها . ثم ان جوا من التشاور والترابط والتلاقى المستمر يجب

ان يتوفر بين الهيئات التعليمية والادارية بحيث تقلص المخابرات القرطاسية الى أدنى حد ممكن .

(15) التربية المستمرة : إن الحديث المأثور «اطلب العلم من المهد الى اللحد» ينبغى أن يؤخذ به حرفيا. لان تربية الانسان تبدأ مع الولادة (ان لم نقل من بداية الحمل) وتستمر طوال حياته . فالبيت والمدرسة والمكتبة والجامع والمحيط الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ووسائل الاتصال الحديثة من راديو الى التلفاز الى السنما وكذلك الطبيعة والكون كله يلعب دورا فى تربية الانسان باستمرار . فالتخطيط التربوى الاسلامى ينبغى ان يعمل على نشر الوعى والرغبة الدائمين عند المسلمين على اختلاف اعمارهم ومستوياتهم ليعملوا على تربية أنفسهم وتنميتها فى كل نواحى حياتهم .

تخطيط السلم التربوى :

إن التخطيط التربوى الاسلامى فى وسعه ان يبنى مراحل الدراسة ويطورها على ضوء ما يقره علم النفس النشوئى وعلى ضوء تطور البلاد وتقدمها اقتصاديا وثقافيا . وها نحن فيما يلى نقترح الاخذ بالمراحل التالية على ان تكون قابلة للتكيف وللتحوير :

التخطيط للتربية العائلية وقبل السن المدرسى : إن علم النفس التربوى يؤكد تأكيدا قويا على أهمية تربية الطفل فى السنوات الاولى بل وعلى الاخص فى الاشهر الاولى من حياته . ومع أن الطب الحديث قد تقدم كثيرا فى ضمان صحة الطفل وحياته فى السنوات الاولى من العمر الا أن وفيات الاطفال فى البلاد الاسلامية ما يزال عاليا نسبيا . كما ان وسائل العناية بالاطفال ليست متوفرة للجميع . وهذا يلقى على المجتمع الاسلامى واجب التخطيط الجاد لبناء بيوت صحية وتوفير الرزق الكافى للوالدين لتعم الحياة العائلية السعيدة وليحظى الاطفال بالعناية وبالتربية الصالحة فى البيت تربية تؤمن نموهم الجسدى والعقلى وسلوكهم الاجتماعى والاخلاقى كما يأمر بذلك الدين الاسلامى الحنيف . ولتأمين تربية الطفل فى البيت تربية صالحة لا بد من اعداد الوالدين وارشادهم الى أهمية وأساليب العناية بالطفل ولذلك نقترح تنظيم دورات دراسية للذين ينوون انجاب الاطفال من آباء وأمهات المستقبل تعرفهم وتوجههم ليصبحوا آباء صالحين وأمهات صالحات فى المستقبل .

والمطلوب من المجتمع الاسلامى ان يسرع فى تحرير المرأة فى كل مكان وأن يحلها المحل الانسانى اللائق بها فتتمتع بالقيم والحقوق الانسانية التى

يتمتع بها الرجل على قدم المساواة . وأن يعني بتربيتها لتصبح أما صالحة ومواطنة مسلمة تخدم أسرتها خاصة والمجتمع الذى تعيش فيه عامة . والرجل بدوره ينبغى ان يربى تربية عائلية كريمة ليصبح رب الاسرة والاب الصالح الذى يتعاون مع زوجته لتزويد الامة بالابناء الاصحاء الصالحين .

إن الضعف الاساسى فى المجتمع الاسلامى اليوم يرجع فى نظرنا الى حد كبير الى العائلات المتخلفة التى قد تقصر فى تنشئة ابناء أصحاء سعداء ذوى آداب اسلامية وحب للنظام وتحمل للمسؤولية .

هذا ولا بد للمجتمع الاسلامى من توفير العناية بأطفال الامهات العاملات حيث ينبغى ان يطالب الى المعامل والمؤسسات التى تستخدم الامهات ذوات الاطفال فى تأسيس دور حضانة تعنى بالطفل الرضيع اثناء غياب أمه على ان يسمح للأم لتقوم برضاعة طفلها فى الاوقات المحددة لذلك .

وحين يبدأ الطفل بالتجوال فى البيئة ويرغب فى اللعب مع أقرانه يستحسن توفير **رياض أطفال** تعنى بتربيته وهى عبارة عن معاهد يسودها جو من الحركة واللعب مع عناية بنمو الطفل الخلقى والفكرى والاجتماعى فى جو صحى . وليس من الضرورى ان تكون هذه المعاهد ذات مرافق ضخمة ومواد باهضة التكاليف بل يمكن ان تشبه بيئة ريفية فيها الحيوانات والنباتات وساحات اللعب . واذا لم تتوفر رياض الاطفال فمن الضرورى فى نظرنا توفير حدائق فيها ساحات لعب تخصص للاطفال فى كل ناحية من نواحى المدينة وفى كل قرية . وفى هذه الحدائق يلعب اطفال المحله (الحومة) تحت رقابة عدد من الامهات . فالامهات اللواتى يرسلن اطفالهن للحديقة يمكنهن تنظيم تعاونية تقوم بتنظيم أوقات التطوع للامهات اللواتى يتناوبن على مراقبة الاطفال فى الحديقة . والمهم فى نظرنا هو توفير محيط سعيد وصحى للاطفال قبل السن المدرسية حيث يمكنهم اللعب وينعمون بالرفقة الصالحة ويعودون على استعمال اللغة الواضحة والآداب الاجتماعية .

التربية الابتدائية : تبدأ فى السن السادسة أو السابعة للطفل وتستمر من خمس الى ثمانى سنوات . وهذه التربية تكون عامة لكل أطفال الشعب وهى اجبارية فى كل البلاد المتقدمة . أما العالم الاسلامى فان التربية الابتدائية لم تتوفر فيه لكل ابناء الشعب بعد ولم تصبح الزامية قانونيا بعد الا فى القليل من الاقطار الاسلامية مع أنها الزامية من الناحية الدينية . ذلك بمنطوق الحديث الشريف « طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

والمطلوب من التربية الابتدائية ان تزود الجيل الاسلامى الناشىء بالافكار والافعال والاوضاع النفسية والعادات المطلوبة للحياة الانسانية الصحيحة . وذلك بتحقيق الاهداف التربوية التالية :

(1) ايقاظ العاطفة الدينية النبيلة فى نفس الطفل العاطفة التى تتضمن التعاطف والتراحم والمحبة والاخاء بين الافراد ذلك مع تقدير نعم الخالق عز وجل وشكره على نعمه مع تعويد الطالب على أداء الفرائض وتلاوة القرآن الكريم .

(2) غرس الفضائل الاخلاقية الاسلامية والعادات الكريمة فى حياة الطالب مدعمة بآيات من القرآن الكريم وقصص فى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضى الله عنهم .

(3) تنمية الشعور بالترابط والتلاحم وغرس الولاء والحب للعائلة والمجتمع والدولة والاخوة الاسلامية مع تقدير الشعوب المحبة للسلام والحرية . ويستعان ببسائط التاريخ والجغرافية والتربية الوطنية لتحقيق هذه الاهداف.

(4) تزويد الطفل بالحقائق الصحية الاساسية وتعويده على ممارسة النظافة والجدارة البدنية وتناول الغذاء الموزون وتحذيره من اخطار البيئة ولا سيما من حوادث السير والتدخين والكحول والمخدرات .

(5) غرس حب الاستطلاع ومشاهدة الطبيعة فيه وجعله يدرك ان جهود الانسان المتراكمة أدت الى اكتشافه الموارد الطبيعية واستثمارها والمحافظة على بقائها .

(6) غرس حب العمل والانتاج فى الطفل وجعله يفخر بالانتاج والابداع . وهذا يتطلب تهيئة الفرص الكافية ليتعاطى الطفل الاشغال اليدوية فى الفلاحة وفى أعمال الخشب والفخار والادوات الميكانيكية الى غير ذلك . وقد أحسنت وزارة التربية القومية فى تونس باضافة السنتين السابعة والثامنة الى الدراسة الابتدائية مع الاخذ بمبدأ التوجيه الى الفلاحة والاشغال الصناعية فى هاتين السنتين .

(7) غرس تقدير الفن الجميل فى الطفل وجعله يساهم فى الخبرات الموسيقية والرسم والشعر ورواية القصص والتمثيل الروائى الى غير ذلك ...

(8) إن القراءة والكتابة والحساب تشكل الادوات التى بها تكتسب التربية الاساسية . فالاطفال فى سن الدراسة الابتدائية ينبغى ان يتعلموا التعبير عن أفكارهم بلغة الأم فيتكلمون ويقرؤون ويكتبون بوضوح وبصورة صحيحة . كما يطلب اليهم ان يتعودوا على الدقة فى القياس . ولما كانت القراءة والكتابة بهذه الدرجة من الاهمية وجبت العناية التامة بها فى الدراسة الابتدائية . وعدم التقدم فيها الا بعد اتقان وتأكد فى كل مرحلة من مراحل الدرس .

(9) إن التخطيط للتربية الابتدائية تتطلب الاعتماد على الاحصاءات والاستعداد لقبول العدد المؤهل التحاقه بالمدرسة الابتدائية واعداد العدد الكافى من المدرسين للعدد القادم من الطلاب .

(10) نحن نعتقد بأن الهيئة التدريسية ينبغى ان تساهم فى وضع برامج الدراسة وان يترك لها المجال الواسع للتكيف والتصرف بهذه البرامج وفق ظروف الطلاب والبيئة. والمهم هو ان يكون نوع التربية التى يؤخذ بها مطابقا للمثل العليا والفضائل والآمال الاسلامية .

التربية الاساسية للراشدين : من المعلوم أن الاكثرية الساحقة من الراشدين فى العالم الاسلامى اليوم هم أميون لا يحسنون القراءة والكتابة . وهذا ما لا يتفق وتعاليم الاسلام . فبالقراءة والكتابة يتحرر الانسان من محيط ضيق محدود وينتقل الى عالم واسع بعيد الارجاء . القراءة والكتابة تضيف الى حياة الانسان ابعادا جديدة فى الزمان والمكان وتوسع آفاق حياته . ثم إن القراءة والكتابة ضروريتان للحياة المدنية الحديثة وهما كالسمع والبصر وسائل لتوسيع وثراء خبرات الانسان ، فالقراءة والكتابة ينبغى ان يستخدما لمساعدة الراشدين على التمتع بحياة هى أكثر رخاء وسعادة ونجاعة من الحياة التى يعيشها الأمى .

هذا وإن الحد الادنى لما ينبغى ان يحصل عليه الراشدون هو ما يعبر عنه بـ « التربية الاساسية » وهذه تتضمن الى جانب القراءة والكتابة تعلم مبادىء الدين الاسلامى والاخلاق والصحة والواجبات المدنية وبسائط العلوم والتمتع بالفن والادب . نحن نقترح ألا تقل مدة الدراسة فى التربية الاساسية عن السنتين .

هذا وإن تربية الراشدين على نطاق واسع تتطلب مرافق عديدة ومعلمين وكتب ووسائل تعليمية ولا سيما الوسائل السمعية البصرية . وفيما يتعلق بالمرافق يمكن الاستفادة من المبانى المدرسية والمساجد ودور الشعب

والنوادي والجمعيات الثقافية . ولذلك فلا نرى في تعليم الراشدين اشكالا من ناحية المكان . واما ما يتعلق بالهيئة التعليمية فنقترح حيث لا يتوفر المال ان تجرى تعبئة على نطاق قومى بحيث يطلب الى كل مواطن متعلم أن يتطوع فيساهم فى مكافحة الامية ببعض الوقت كما يمكن النظر فى جعل التدريس يعوض عن الخدمة العسكرية حيث يمكن ذلك ، ولا سيما للمتعلمات .

هذا ونقترح الاستفادة من الراديو والتلفاز الى جانب الكتاب فى التربية الاساسية . هذا وننصح ان تعد كتب خاصة بلغة مبسطة وحروف كبيرة لتعليم الراشدين . وبكلمة مختصرة فان توفير التربية الاساسية للراشدين يعنى ان الامة كلها تدخل المدرسة .

التربية الثانوية : هى المرحلة التربوية التى تلى مرحلة التعليم الابتدائى الاساسى . وهى تستمر من أربع الى سبع سنوات حسب الانظمة الدراسية المختلفة . إن هذه المرحلة هى من أكثر المراحل الدراسية اشكالا فى الفكر التربوى المعاصر . وانها فى نظرنا تحتاج الى درس عميق وتفكير واضح حول الاهداف التربوية والمحتويات الدراسية . فهى فى عالمنا الاسلامى تكون فى الغالب من النوع النظرى الذى يعنى بحشو المعلومات فى أدمغة الطالب فى الدرجة الاولى . ولذلك فهى تقود معظم الطلاب الى أعمال برقراطية فيصبحون من أصحاب « الياقات البيضاء » هاربين من الاعمال التى تتطلب دخول معترك الحياة العملية فى الصناعة أو الزراعة أو التجارة مثلا . بينما المطلوب من التربية الثانوية ان تلبى احتياجات كل الشبان والشابات الذين تتراوح اعمارهم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة على اختلاف مواهبهم وقابلياتهم وميولهم فى اختصاصات وفى مهارات منوعة .

ولذلك نقترح أن يساهم كل طالب فى « جذع ثقافى » موحد ومشترك يدرسه كل الطلاب . ثم ان يتوفر لكل طالب مجال للاختصاص فى دروس أو مهارات تتفق وقابلياته وميوله .

فالجذع الثقافى المشترك الذى يفرض درسه على كل طالب ثانوى يتكون من الدين واللغة القومية والتاريخ والجغرافية والرياضيات العامة والعلوم العامة ولغة أجنبية واحدة على الاقل مع درس مشاكل الانسان المعاصر على ضوء مبادىء الدين الاسلامى .

أما مواضيع الاختصاص فلا حد لتنويعها فهي تتفرع وفق حاجات البيئة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من جهة ووفق ميول الطلاب ومواهبهم من الجهة الاخرى. فالشاب في مرحلة الثانوية يمكن ان يتجه الى الزراعة أو التجارة أو البناء أو الميكانيك أو الكهرباء أو الفنون البيئية أو التمريض أو الآداب أو الدين أو الرياضيات أو الفيزياء والكيمياء أو علوم الحياة أو اللغات الحية أو الخدمة الاجتماعية أو التعليم أو المواصلات برا وبحرا وجوا الى تربية الدواجن وصناعة الالبان . وهلم جرا ... كل ذلك بالاضافة الى متطلبات الجذع الثقافى المشتـرك .

ومن المستحسن فى المجتمع الاسلامى تشجيع المدارس الثـانوية المسـائية للراشدين الذين أتموا مرحلة التربية الابتدائية الاساسية بنجـاح والـذين يرغبون فى متابعة الدراسة .

يطلب الى المدارس الثانوية التى تديرها هيئات خاصة أو أجنبية ان تلتزم بتطبيق البرنامج الجذع عينه الذى تطبقه المدارس الرسمية بحيث تصان وحدة ثقافة الامة ويؤمن انسجام ابنائها .

ليس من المستحسن فى نظرنا ان يحمل الطالب فى المرحلة الثانوية دروسا متعددة ، وذلك لتشجيعه على هضم ما يدرس وتجنب السطحية والتشويش الذهنى . وبدل كثرة الدروس يشجع العمل الفردى فى المكتبة فيتمكـن من الرجوع الى المراجع الاساسية كالمعاجم ودائرة المعـارف وأمهـات الكتب ، كما تهيأ الفرص للعمل الفردى والجماعى فى القيام بالتجارب العلمية فى الحقول وفى المختبرات (المعامل) ، كما ينبغى تعويد الطلاب على أسلـوب التفكير الواقعى الصحيح والحوار الحر . وتخصص أوقات للتمتـع بالفنـون الجميلـة والالعاب الرياضية والاعمال الكشافية والفروسية والرحلات البرية والبحرية وتسلق الجبال الى غير ذلك ... وفى كل هذه الاعمال وفى كل فرصة سانحة ينبغى ان يغذى وينمى وعى الطالب الدينى وسلوكه الاخلاقى .

إن مرحلة التربية الثانوية هى مرحلة حرجة فى عمر الفـرد . اذ فى هـذه المرحلة يبدأ الطالب بالتفكير في مستقبل حياته ، وفيها يكتشف موقعه وموقع أسرته فى المجتمع ، وفيها يبدأ واعيا بتنمية أولاعه واكتشاف امكاناته ، وفيها تتبلور مبادئه الاخلاقية ومثله العليا ، وفيها يكتشف الهوة القائمة بين آماله واحلامه وبين واقعه الذى يعيشه فى مجتمعه . فالطالب فى المرحلة الثانوية

يحتاج الى صديق يرشده ويوجهه فى مغامراته الحياتية ومنها قضايا الايمان والعقيدة والاخلاق والمهنة . فالعائلة والعالم الدينى والاستاذ يقوم كل بدوره فرادى ومجتمعين فى مساعدة الطالب والاخذ بيده فى هذه المرحلة .

إن التربية الثانوية تتطلب أساتذة ومدرسين ذوى مؤهلات رفيعة فى موضوع اختصاصهم ومؤهلين فى الوقت نفسه فى شؤون التربية ليتولوا تربية الناشئة فى الاخلاق وفى العقيدة انها تتطلب أساتذة ومدرسين يعرفون نفسية الشباب ومشاكله المعاصرة .

التربية العالية : وهى التى تجرى فى معاهد خاصة أو فى كليات أو جامعات ويتم الانتماء اليها بعد اكمال التربية الثانوية . إن التربية العالية تتولى اعداد الاطارات التقنية والمهنية والاكاديمية التى تحتاج اليها البلاد الاسلامية . كما تتولى شؤون البحث والتحرى والاكتشاف فتضيف الى ثروة المعرفة البشرية . هذا وإن المستوى التربوى لاى بلد يقاس عادة بدرجة السمو الذى تحققه المعاهد العليا فى حقل العلوم المضبوطة والعلوم التطبيقية والعلوم الانسانية . ونظرا لما لهذا الموضوع من أهمية خاصة فانا نحيل القارئ الى ما جاء فى كتابنا « نحو توحيد الفكر التربوى فى العالم الاسلامى» تحت فصل « دور الجامعة فى المجتمع الحديث » . وما نريد ان نورده هنا هو الاشارة الى أهمية الاخذ بالنقاط الثلاث التالية فى التخطيط التربوى للعالم الاسلامى :

(1) إن العالم الاسلامى فى حاجة ماسة الى زعامات اخلاقية ودينية . فالمطلوب من الجامعات الاسلامية أن تعد أساتذة فى الدين يجمعون بين العلوم الدينية وبين الدراسة الفاحصة للآراء العلمية والفلسفية والتيارات الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة . فالمطلوب من هؤلاء الاساتذة أن يقودوا العالم الاسلامى فى طريق البعث الاخلاقى والاجتماعى الى جانب البعث الفكرى والتقنى وأن يبرهنوا للعالم أجمع بأن الدين الاسلامى يحقق الانضباط الدمقراطى والاخاء الانسانى للانسانية كافة .

(2) إن العالم الاسلامى يحتاج الى عناية خاصة بموضوع التربية وبتربية المربين على قواعد اسلامية تجمع وتوحد بين الايمان والاخلاق والعلم والعمل. وإن أهمية تكوين المربين تزداد خطورة لأنهم هم الذين يقومون بالدور الرئيسى فى التخطيط التربوى فى العالم الاسلامى وهم الذين يشرفون على تنفيذ المخطط الذى يراد له النجاح .

(3) إن العالم الاسلامي اليوم هو في أشد الحاجة الى علماء ممتازين في كل نواحي الاختصاص ولا سيما في حقل العلوم المضبوطة والتقنيات . فالمطلوب تكوين هؤلاء العلماء من الرجال المؤمنين والنساء المؤمنات الذين يتمتعون بدرجة عالية من الاخلاق والنزاهة الفكرية .

إن المجهود المشترك والموحد لعلماء الدين والتربية والعلوم والتقنيات هو الذي يحقق ما نصبو اليه من بعث اسلامي .

التربية خارج المدرسة وبعدها : إن التربية عملية حياتية لا تبدأ بالمدرسة ولا تنتهي بها . فخارج المدرسة وبعد اتمام الدراسة المدرسية يستمر النمو التربوي على مستويين : المستوى الاختصاصي والمستوى العام الشعبي. ولا بد للتخطيط التربوي في العالم الاسلامي من ان يشمل المستويين :

فالتخطيط للمستوى الاختصاصي يتضمن تأسيس معاهد للابحاث ومختبرات ومكتبات اختصاصية . وكذلك انشاء جمعيات تعنى بشتى فروع المعرفة : في العلوم الانسانية وفي العلوم الطبيعية والحياتية وفي الفنون والآداب واللغات الى غير ذلك . والعالم الاسلامي يحسن صنعا لو عني باحياء التقاليد التي اتبعها في أيام عزه وأمجاده في بغداد والاندلس يوم نقلت العلوم والتقنيات من الشرق ومن الغرب الى العربية . ونقحت وأضيف اليها . إن مرحلة الترجمة والنقل يمكن أن ترافقها مرحلة انتاج وابداع في العلوم والتقنيات . ولا بد من تخصيص المبالغ الوافية للعلماء والباحثين ولتأسيس المختبرات (المعامل) والتجهيزات الحديثة كالادمغة الالكترونية والمكتبات المختصة بعلم من العلوم وتشجيع الاسفار العلمية وتبادل الاساتذة والخبراء العالميين .

أما التخطيط على المستوى الشعبي العام فقد يتخذ وسائل عديدة منوعة تمس حياة الشعب من كل جوانبها نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

(أ) تأسيس مجمعات تربوية تجمع بين المسجد و « المركز الثقافي » . فالمسجد الذي هو بيت الله مركز العبادة يصبح مركز اشعاع وتثقيف يتعاون مع « المركز الثقافي » أو « دار الشعب » أو « منظمات الشباب » في توجيه الناشئة نحو الخير والمعرفة عن طريق المحاضرات العامة والافلام والتمثيل الروائي وصفوف تعليم الراشدين والمعارض الفنية الى غير ذلك .

(ب) قيام المنظمات الانسانية والسياسية والمهنية بتوعية الفرد وتربيته وبذلك تزيد فى قوة الامة وانسجام ابنائها .

(ج) الاهتمام بالمكتبات العامة وجعلها فسيحة جذابة وفى مواقع مركزية سهلة المنال . وتشجيع الناس على ارتياد المكتبات ومطالعة الكتب والمجلات القيمة . كما يمكن الاكثار من المكتبات المتنقلة التى تزور القرى والارياف فتزود أهلها بالكتب التى تستحق المطالعة . وذلك الى ان يتم تأسيس مكتبات ثابتة فى كل بقعة من بقاع الوطن .

المتاحف كالمكتبات ينبغى ان يخطط لها لتصبح مراكز لنشر الثقافة الانسانية .

(د) الاستعانة بالسنما والراديو والتلفاز لتصبح من وسائل التربية المستعمرة . وهذا يتطلب استبعاد المواد الرخيصة والتى تؤدى الى الميوعة والفساد من هذه الوسائل ، وتخطيط برنامج تربوى كامل للشعب ، برنامج يحتوى على الدين والصحة والاقتصاد والزراعة والادب والجغرافية والتاريخ والحياة المدنية وتعليم اللغة القومية والاجنبية والموسيقى الرفيعة .

(هـ) الاستعانة بالمطبوعات من صحف الى مجلات الى كتب على مختلف المستويات لتصبح وسيلة من وسائل التربية المستمرة . ولا حاجة للتأكيد على ان الذين يتولون شؤون المطبوعات ينبغى ان يكونوا على مستوى اخلاقى وفكرى عال ذلك ان جانب تمسكهم بالعقيدة الاسلامية .

وأخيرا نختم هذا البحث باقرار ان التخطيط للرقى والنهوض أصبح يشكل جانبا هاما من حياة الانسان المعاصر . والتخطيط التربوى ينبغى ان يلعب دورا أساسيا فى تحقيق النمو والازدهار لكل دولة اسلامية خاصة وللعالم الاسلامى والانسانية عامة .

د. محمد فاضل الجمالى

لوحة

العجلة في الوحل

بقلم : البشير بن سلامة

فكّ العربة من البغل وخلّى سبيل الدابة ثم أنزل الرحل عنها وقادها الى حيث الراحة والأكل، ورجع الى ركنه المألوف وإلى نفسه .

بدأ الليل يزحف بظلامه وتتسرب كثافته في نفس الرجل شآبيب شآبيب، متخللة طبقات همومه ، طار فيها وتليدها ، غامرة زمانه الحاضر والآتي . ولولا وخزة الجوع الموقظة لأخلد إلى أوصابه نوما طويلا ، موتا منقذا .

وهبّت موجة من البرد أطفأت من أوار نفسه ألسنة بارزة ، وعزّت عن الدفينة قدرا وسوء طالع ، وتحركت ريح خلطت البرد بالظلام والغيوم ، فانشقت السماء عن برق أيقظ الرجل رعده من سباته وانسل المطر من طبقات السماء يتقاطر هزيلا أشيب كبريق عين الغدر في الظلام .

ونام الرجل تعبا ويأسا وانفلاتا من أمسه وغده .

وفي غفلة نومه تهاطل المطر ساخرا منه ، مالئا المسالك والدروب ، وفي صحوة الفجر لما بدأ جفن الظلام يثقل

وَعَيْنُ النَّهَارِ تَنْفَرِجُ تَحَامَلَ الرّجُلَ عَلَى نَفْسِهِ يَدْفَعُهُ الخَوْفُ مِنْ سُعَارِ قُوتِهِ أَضْنَى العَقْلَ وَالبَدَنَ .

وَمَشَى الى البَغْلِ وَالعَرَبَةِ يَشُدّ بَعْضَهُمَا إلى بَعْض ، والمَطَرُ والضَنَى يَشُدّانِ بِحِبَالِهِمَا رِجْلَيْهِ وَيَدَيْهِ . وَلَمَّا اسْتَقَرّتْ عَلَى العَرَبَةِ الأَحْمَال وَنَبَحَتْ عَجَلاتُهَا فَوْقَ المَسْلَكِ المُنداحِ وَحَلا حَسِبَ أنّ عَجَلَةَ الزّمَانِ تَدُورُ لإِطْفَاءِ سُعَارِهِ بِالجُهدِ وَالضَنَى وَالعَرَقِ المَغْسُولِ مَطَرا .



وَدَارَتْ عَجَلَةُ العَرَبَةِ وَالزّمَانِ وَقْتًا حَسِبَهُ طَوِيلًا يُهَدْهِدُهُ نُبَاحُهُما وَأَنْفَاسُ الدّابَةِ المُتَعَالِيَةِ صَخَبًا انْسَاهُ ضَجِيجَ نَفْسِهِ وَأَوْجَاعَ عَضَلَاتِهِ حَتّى تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ هَذِهِ الأَصْوَاتِ وَتَبَاطَأَتْ العَجَلَاتُ عَنِ الدّوَرَانِ فَانْسَلّ الرّجُلُ تَوْأَمًا للدّابَةِ يُعَاضِدُهَا وَيُعَنْدِيهَا بِقُوّتِهِ وَلَكِنْ ...

وَقَفَت العَجَلَةُ اليُمْنَى وَغَاصَ جُلُّهَا فِي الوَحَلِ فَانْقَلَبَ الرّجُلُ التّوْأَمُ غَرِيمًا للدّابَةِ يَلْفَحُهَا بِالسّوْطِ وَيَنخزُهَا بِالصّوْتِ وَلَا حَرَاكَ ،وَالمَطَرُ يَلْذَعُ الجَمِيعَ ، وَالعَجَلَةُ تَغْرَقُ .. وَتَغْرَقُ، وَالدّابَةُ تُؤْثِرُ الزّحْفَ أَخِيرا ، وَالرّجُلُ يَقِفُ وَقَدِ انْسَلّ المَاءُ إِلى أَعْمَاقِهِ.. وَطَفَحَ اليَأْسُ غَامِرا جَوَارِحَهُ وَأَنْفَاسه .

وَنَظَرَ الى دَابّتِهِ فِي حُنُوٍّ وَرَبّتَ عَلَيْهَا وَقَرُبَ مِنْهَا فَاخْتَلَطَتْ أَنفَاسَهُ بِأَنْفَاسِهَا وَانْزَاحَ سَحَابٌ عَنْ شَمْسٍ تَبْتَسِمُ فِي إِعْيَاءٍ وَسَطَ سَمَاءٍ فِيهَا بَقَايَا رَعْدٍ .

فَجَمَعَ قُوّاهُ وَقُوَى دَابّتِهِ فَكَأَنّهُمَا يَسْتَخِيرَانِ قُوّة تَفُوقُ قُوّاهُمَا وَأَقْلَعَا مِنْ جَدِيد .. وَأَيّ إقلاعٍ ..!

البشير بن سلامة

رسالة المقروء والمنطوق

بقلم : محمد العياشي

إن سنوات ثلاثا مضت على صدور كتابي « نظرية إيقاع الشعر العربي » الذي بسطت فيه رأيي في قضية تتصل بإحدى الدعائم الاساسية للفن العربي والاسلامي وهي قضية الايقاع الشعري العربي . ولقد تميزت تلك النظرية من التضارب مع النظرية التقليدية بما كنت أعتقد انه سيثير اهتمام النقاد والمختصين ويحرك هممهم للنقاش والجدال بالقدر الذي يستوجبه الامر وتقتضيه الحال . ولكن مدة ليست بالقصيرة قد مضت والمختصون والنقاد يلزمون الصمت . لماذا ؟

ولقد تساءلت عن هذا الامر غير ما مرة فلم أجد لهذا السكوت سببا معقولا ولا مبررا مقبولا ، حتى فوجئت في عددي أكتوبر ونوفمبر من مجلة الفكر بمقال للاستاذ محمد الهادي بسباس بعنوان « بين العروض والايقاع » تصدى فيه لنقد نظريتي بما لا يمكن لمثله أن يقوم شاهدا لي أو حجة علي إذ لم يكن ناقدنا من أهل الاختصاص ولم يكن غرضه من الكتابة إلا الكتابة يلهو بها بعد الفراغ من عمل الدين والدنيا فيكتب أي شيء وفي أي موضوع ويجادل المختصين وليس بصاحب اختصاص ، ويتعجب أن اشترطت في صاحب البحث أن يكون مختصا في موضوع بحثه كأني قلت هجرا أو أتيت بدعة وكفرا! . ولو كان من أهل البحث لعرف معنى التخصص الذي هو التفرغ بل الذهول التام عن جميع المواضيع لفائدة موضوع واحد يحتك به مليا ويباشر مشاكله بكرة وعشيا . فيجول في آفاقه ويغوص في أعماقه ويتجشم فيه من المجاهدة والمعاناة ما يكون

حريا أن يذلل له الصعاب وخليقا أن يعالج له مغالق الابواب فيقول عنحكمة وعلم ويسكت عن أناة وحلم ، وهو السكوت الايجابي الذى لا يكون إلا بمقدار فيكون له أكثر من دلالة وأكثر من معنى . وأما السكوت الذى التزم فى شأنى فانى صرت أخشى أن لا يكون له من دلالة أو معنى إلا التخلى عن الواجب والتفصى من المسؤولية والهروب من الواقع . وهو ما جعلنى أتفكر وأتأمل وأتساءل ، ترى هل يكون مرجع صمتهم الى مخالفتى لما هو معروف وتحيزهم لما هو مأنوس ومألوف ؟ ولكن متى كان شيء هو أبعث على الجدال والنقاش من تضارب المعارف وتعارض المواقف ! أم ترى يكون ذلك إنما أتى من قبل غموض المفاهيم وعدم الاستعداد من الناحية التكوينية لتقبلها ؟ ولكن متى كان السكوت وسيلة لتدارك النقص أو سبيلا لازالة الغموض ! ولو شئنا أن نلتمس لأحد عذرا عن سكوته فما عذر المختصين . بل ما حجتهم اذا سألهم التاريخ « ما خطبكم إذ طلع عليكم كتاب النظرية فاثاقلتم ؛ وما منعكم إن كان فيه حق أن لا تؤيدوه وإن كان فيه باطل ألا تفندوه ؟ أو لم يبلغكم أنه ليس شيء هو أشرف من إحقاق حق اذا بهر أو إبطال باطل اذا ظهر؟أم ما منعكم من قول ألحق حين لزم بما يقتضيه الشرف والدين ؟ » ولكن لندع المختصين لشرفهم ودينهم وللتاريخ . فلعل همة أ نتنهض وعسى ضمير أن يستيقظ ولعل أمرا أن يكون .

ولنلتفت الى الاستاذ الهادى بسباس الذى إن أعوزته خبرة المختص المتشبع بالمادة فانه لا تعوزه شجاعة المثقف الذى لا يقنعه من النظر فى إنتاج المنتجين أقل من إبداء الرأى فيه بصراحة وصدق وإن كان الانتاج من الصنف الاختصاصى كموضوع النظرية ولم يكن من أهل الاختصاص ولم يكن له من الالمام بالموضوع إلا ما يكون عادة لاستاذ العروض فى السنة الثالثة من التعليم الثانوى ، والذى هو عند هذا المستوى ــ مستوى البحث ــ قليل جدا لا يفى بالحاجة .

ولكن لا يسعنا رغم ذلك إلا أن نرحب بنقد الاستاذ الذى لو لم يكن له إلا فضل الشجاعة وشرف المبادرة لكان له ذلك عملا أصيلا وشرفا أثيلا . ولكن مهما بالغت فى شكره فانى لا أنسى ما يقتضيه الامر من الرد على نقده بما لا أقصد من ورائه سوى حصر المجال وتصحيح المقال . هذا وإنك لمؤاخذى بأمور أنا راجع بك اليها أمرا أمرا فمفصل لك إياها فصلا فصلا عسى حجة أن تسطع وعسى التباس أن يرفع والله ولى التوفيق .

٤) فأما قولك إن الخليل لم يكن بيده عقليا ولا تاريخيا أن يستفيد من اكتشافات القرن العشرين إذ لم يكتب له البقاء حتى يدرك عصر التكنولوجيا الحديثة هو الذى عاش فى القرون الوسطى ، فانه قول مردود لاسباب :

ـ أولها : أن الخليل بن أحمد لم يكن فى حاجة الى التقنيات الحديثة اذ لم يكن يزمع أن يقوم برحلة الى المريخ وإذن فما شأنه وشأن التكنولوجيا ؟

ـ والثانى : أن كل ما كان يطلب من الخليل هو أن يوفق فى تفسير الظاهرة الايقاعية فى الشعر العربى وكيفية تأليفها وظروف استعمالها مع تجسيمها للبصر والسمع بطريقة كفيلة بتصويرها تصويرا حقيقيا دقيقا. وما كان ذلك ليستعصى عليه لو كان من أهل الفن وإن عاش فى القرون الوسطى .

وحجة ذلك أنه إن كان صحيحا أن المترونوم قد استنبط فى القرن السابع عشر وأن السوناغراف قد استنبط منذ عقود قليلة فانه صحيح أيضا أن غيدو داردزو قد وضع طريقته فى ترقيم الايقاعات والالحان فى القرن الحادى عشر للميلاد أى فى القرون الوسطى أيضا وبلا استعانة بسوناغراف ولا ميترونوم . هذا ولا يغرنك الفارق الزمنى بين الخليل وزميله الايطالى فان القرن الثانى للهجرة فى بلاد الاسلام هو أشبه بالقرن الخامس عشر فى بلاد الروم وإن القرن الحادى عشر الميلادى فى أوربا هو أشبه بعصور الجاهلية عند العرب هذا ولا أعتقد أن نظرية صحيحة فى ميزان الشعر أو طريقة موفقة فى الترقيم الموسيقى تعادل فى الصعوبة والخطورة كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى وليس بينه وبين الخليل إلا عقود قليلة من السنين . لاحظ أن الغربيين فى القرن الحادى عشر لم يزالوا يتخبطون فى فهم الارقام العربية واستعمالها .

ـ والثالث : أن الآلة مهما كانت متطورة لا غنى لها عن معطيات تستفيدها من الانسان . وكذلك السوناغراف . فليس له من دور سوى تجسيم الايقاعات للبصر على غرار الآلة المسجلة التى تدونها للسمع . وليس السوناغراف هو الذى يتولى عمليات البحث والتنقيب عن الايقاعات فى الشعر . وأنى له ذلك وهو لا يحسن القراءة لا بالانكليزية ولا بالروسية فضلا عن العربية . فلا تتجاوز وظيفته التقاط الاصوات لتجسيمها للبصر . فان كانت نثرا جسم حركة عادية لا تتميز بشىء من النسبة أو النظام وإن كانت شعرا جسم حركة إيقاعية بكل ما لها من المميزات شريطة أن يكون الملقى مصيبا فى إلقائه . فلا نصلح مثله إلا لتأييد نتيجة أو دحضها .

وأما الدور الرئيسى فملقى على أكتاف الباحث هو الذى يتدبر الحركة فى الشعر بحسه وحدسه ووعيه الصحيح بمرور الوقت . فيتصور الايقاع بمختلف عناصره وما لها من النسب والكيفيات فيجسمها للسوناغراف ويجسمها السوناغراف للبصر انطلاقا من أدائه . وما مثل السوناغراف إلا كمثل العقل الالكترونى يفتقر أبدا الى معطيات صحيحة من توفير العقل البشرى . فتبقى الآلة آلة لا أكثر ولا أقل .

وأما المترونوم فلا يزيد شأنه على أنه آلة تعليمية بسيطة تعتمد فى تلقين المبتدئين كى يحافظوا على درجة السرعة ومقادير النسب . وأما الفنان فله من دقة الحس وقوة الوعى بمرور الوقت ما يجعله فى غنى عنه . وهو ما يسميه علماء النفس المترونوم الداخلى le métronome intérieur. واعلم أنه لم يتسن لى أن أستعمل جهاز السوناغراف إلا منذ سنتين . فجاءت النتائج مؤيدة لما كنت قد توصلت الى الكشف عنه بالحس منذ أواخر الستينات بلا مساعدة من آلة أو غيرها .

2) وأما قولك إن التفاعيل كانت الحصن الحصين الذى لاذت به الايقاعات الشعرية فحماها وحمى الشعر من التلاشى والذوبان فاعلم أن الذى حصل هو العكس تماما . لأن الخليل قد سعى الى إتلاف الايقاعات من حيث لا يحتسب . وحجة ذلك هذا الذى أقتطفه لك من مقدمة كتاب لى تحت الطبع بعنوان : « الكميات اللفظية والكميات الايقاعية فى الشعر العربى » .

إن النبهاء المتبصرين ليعلمون أن علم العروض لم يتول حفظ الايقاعات بقدر ما عمل على طمسها وسعى الى إتلافها . ولقد كانت تضيع فعلا لولا الشعر الذى تولى حفظها حقا . ولا أدل على ذلك من هذه التجربة التى نجريها الآن على أحد البحور .

لنعتبر إيقاع المقتضب . ولنفترض أن كل ما قيل فيه من الشعر قد ضاع ولم يبق لنا منه ولو بيت واحد . فانه لا يكون لنا من معول فى معرفته إلا على التفاعيل وعلم العروض الذى ينبغى أن يكون قد وضع بنية حفظ الايقاعات من التلف والضياع كما وضع علم النحو بنية حفظ اللغة من التحريف والفساد .

فاذا رجعنا الى علم العروض وأردنا أن نعتمد عليه فى معرفة إيقاع المقتضب أفادتنا الدوائر الخليلية والتفاعيل العروضية أن المقتضب هو ما تجسمه التفاعيل الآتية :

(مفعـــولات مستفعلـــن)

– – – ں – – ں –
2 2 2 I 2 2 I 2

I4

واذا بعلم العروض يفيدنا عن المقتضب أنه إيقاع ثقيـل ذو أربعـة عشـر عنصرا لأن الوحدة الزمنية فى إيقاع الشعر العـربى هى ما يتسـع للمقطـع المقصور فيستغرق وقتا واحدا ويستغرق الممدود وقتين وهو أمر معروف لأن :

ں ں = –

واذا أنا وجدته فى علم العروض على تلك الصـورة وأردت أن أنظـم فيـه شعرا جاء ذلك الشعر على ذلك الشكل الذى نصت عليه الدائرة ؛ أعنى كالآتى:

(يا من ردنى خائبـا لا يستيئس الطالب)

– – – ں – – ں –   – – – ں – – ں –
2 2 2 I 2 2 I 2   2 2 2 I 2 2 I 2

I4   I4

فاذا قارنا بين ذلك وبين ما وصل إلينا من الشعر المنظوم فى الـواقع على بحر المقتضب وجدنا شيئا آخر لا يطابقه البتة ومختلفا عنه أشد الاختلاف . (اسمـع) ولا أقول (انظـر) لأن الأمر فيه واضح حتى للسماع :

(يا مليحـة الدعـج هل لديك من فرج)

– ں – ں – ں ں –   – ں – ں – ں ں –
2 I 2 I 2 I I 2   2 I 2 I 2 I I 2

I2   I2

واذا بالتفاعيل الصحيحة والمجسمة لهذا الايقاع هى : (فاعـلات مفتعلـن) وليست (مفعولات مستفعلن) التى تنص عليها الدائرة . ويظهر الفارق بينهما

بما لا يقل عن عنصرين يستغرقان وقتين تقطع فيهما الطائـرات الحـديثة ما تقطع من المسافة . فليس شأنهما بالأمر الهين . وباختلاف الكميـات تختلف الكيفيات التى بها يتميز الايقاع بما يتميز به من الطابع واللون ونوع التأثير وغير ذلك من القيم الادبية والدلالات المعنوية والطاقات التعبيرية .

لاحظ أن ما استخرجناه من الدائرة وأجرينا عليه التجربة بالنظم هو إيقاع ـ لا ينكر ذلك أحد ـ لم تبرزه التفاعيل وأبـرزه الكـلام عند النظـم . فاذا اعترفت بذلك تكون فى نفس الوقت قد اعترفت بأن الخليل بن أحمد النحوى لم يكن مهتما بحفظ الايقاعات بقدر ما كان مهتما بتضبيعها ؛ إذ قد ترك إيقاعا رملا يضيع ـ لولا الشعر ـ ودون لنا إيقاعا آخر ثقيلا أى من صنف آخر مخالف تماما . أفلم يأن لأسطورة العروض أن تفضح رسميا وتلغى نهائيا ؟

ولا أحتاج الى تعليل هذا الخلل والنقص فى عالم العروض بقولى : إن الدوائر التى رسمها الخليل هى المتسببة فيه لأنه لولاها لجسم هذا الايقاع بالتفاعيل الكفيلة بتجسيمه تجسيما ـ عند هذا المستوى ـ وافيا بالحاجة وهى :

(فـاعـلات مفتعلـن)

ولكنه لو أدخل الى دائرة المشتبه وهو على هذه الصورة لخرجت منها البحور الاخرى . فاضطر الخليل الى تلفيقه بما يفيض عن حجمه الحقيقى كى يجد مكانه فيها ؛ وهو أمر واضح لا يحتاج الى بيان . فقد رأيت ما سعت اليه التفـاعيل من إتلاف المقتضب وما تولاه الشعر من رعايته والمحـافظة عليه . ولو ضـاع الشعر لضاع إيقاعه معه . ولو ضاع علم العروض لم يضر الشعر ذلك شيئا ولبقى الايقاع فى ضمنه محفوظا كالذى كان من أمره طيلـة عصـور الجاهلية وعصور الاسلام الاولى قبل علم العروض .

ولو صح أن التفاعيل هى التى تولت حفظ الايقاعات من التلاشى والذوبان والتحريف ـ كما زعمت ـ للزم أن يكون إيقاع هذين البيتين لأبى العتاهية :

للمنـون دائـرا ت يـدرن صرفهـا
ثـم ينتقيننـا واحـدا فواحـدا

أو هذين له أيضا :

عتـب مـا للخيـال   خبـرينى ومـالى
عتـب مـا لى أراه   طـارقـا مـن ليـال

قلت للزم أن يكون إيقاعاهما قد ضاعا إذ استنكـف الخليـل من حفظهمـا بتفاعيله لأنهما يفسدان عليه أمر دوائره . ومع ذالك فقد كتب لهما البقاء الى يوم الناس هذا بلا راع يرعاهما ولا وال يلى أمرهما سوى الشعر . وغير ذلك كثير مما استنبط على مر العصور بعد القرن الثانى ولم يحفظه لنا الا الشعر المتقيد بحركته فيومىء اليها ويدل المنشد والسامع عليها .

وحتى فى الحالة التى يتعرض فيها بيت للتحريف فانه لا ينبغى أن يعتقـد امرؤ بأن للتفاعيل دورا ـ مهما كان ضئيلا ـ فى استصلاحه أو إرجـاعه الى صورته الاصلية . ولا معول فى ذلك إلا على الحس الايقاعى والـوعى الصحيـح بمرور الوقت . ذلك ما يثير الشك فى سلامة البيت ويدل على تحريفه إن كان محرفا بلا استشارة للتفاعيل كما لم أستشرها فى معـرفة فسـاد هذ البيت الذى سقته فى مقالك :

أقـام بخيمـات المذلة والارهـا   ب واليأس والأحقاد لا يعرف البشرا

وهو بيت مختل فى وزنه لا يحسن مثله أن يدرج فى مقال يتصل موضوعه بالعروض والايقاع . ولقد سميت هذا الخلل فسادا ولم أسمه تحريفا . وذلك لأن التحريف هو خلل يصيب البيت بعد وضعه . وأما هـذا الـذى أسمـع فالفساد متأصل فيه منذ وضعه بل مستقر قبل ذلك فى ملكة القائل .

وليست التفاعيل هى مـا دلنى على اختـلال الوزن ، ولم يـدلنى عليه إلا مخالفته للنموذج الحركى لميزان الطويل كما انطبع فى نفسى واستقر فى حسى بفضل الحفظ الذى تزدرى شأنه والذى لو لم يكن للاقتصاد فيه إلا هذه العاقبة لكان غبنا ظاهرا وكسبا خاسرا وحظا عاثرا وتسأل الله السلامة .

ولقد سألتنى عما اقترفته التفاعيل من الذنب فاعلم أن لهـا من الذنـوب والعيوب ما يجل عن الحصر . ولكنى نازل رغم ذلك عند رغبتـك فذاكـر لك طرفا منها .

فمن ذلك أنها بعد أن تفيدنا أن الممدود يساوى مقصورين كما فى الكامل حيث يتساوى (مـت) بتحـريك التـاء و (مـت) بتسكينها بما يسمح لنا أن نكتب :

ب ب = —

إذا هى تفيدنا بعد ذلك أن المقصور والممدود متساويان فى القيمة كما فى الرمل حيث يتساوى (ف) بالقصر و (فـا) بالمد بما يسمح لنا أن نكتب :

ب = —

وهو ما يتناقض ومبادىء اللغة ويتضارب ومبادىء الايقاع وينسف النظرية الكمية نسفا . حتى اذا جاء الباحثون لتدارس واستكشاف مجاهله اعترضهم ذلك التناقض الذى هو من تسبيب التفاعيل فتحيروا وارتبكوا ولم يعلموا أى سبيل يسلكون . حتى اذا أعجزهم أمر الكميات وأذهلهم شأنها زهـدوا فيها ويئسوا من حل للقضية يأتى عن طريقها فأعرضوا عنها وتشاغلوا بما ليس من شأنه أن يزيد المشكلة إلا غموضا والتواء كمسألة النبر عند « فايل » ومن لف لفه فاذا هم فى عمياء من أمرهم وذهول عن قصدهم فهم لا يهتدون . ذلك من إجرام التفاعيل . هذا ولو لم تقترف سواه إثما ولم ترتكب إلا إياه جرما لكان معرة فاضحة ومضرة فادحة .

ولو دعيت الى شرح العلة فى اختلال التفـاعيل ومـا ارتكـزت عليه من الأضاليل لكان الجواب فى منتهى اليسر وإن شق أمره على الباحثين .

وعلة ذلك أن التفاعيل لم توضع لتصوير الايقاعات كما كانت تقـوم فى الصدور وكما كانت تنطلق من الشفاه وهذا هو المطلـوب ولكـن كـما كانت تقوم فى الكتابة . والكتابة إنما وضعت لتدوين النثـر الـذى لا يشتمـل من العناصر إلا على المقصور والممدود . فوضعت وضعا مطابقا لذلك . فهى مضطلعة بتصوير الحركة اللفظية فى النثر تصويرا كافيا يتحقق معه التطـابق التـام الذى ينبغى أن يحصل بين المقروء والمنطوق .

وأما الشعر فله شأن آخر لأنه ليس بحركة لفظية فحسب ولكنه حركة لفظية وحركة إيقاعية . ومن تصدى لتدوينه بنفس الكتابة التى توخيت فى تدوين النثر فانه لن يدون منه إلا حركته اللفظية . وأما الحركة الايقاعية فى الشعر فلم يوفق أحد من الامم فى تجسيمها تجسيما حقيقيا لا من اليونانيين ولا من الغربيين ولا من العرب حتى جاءت نظريتنا منذ بضع سنوات . ولقد أجزمت أكثر من مرة أن الايقاع لم تحفظه لنا التفاعيل ولم تحفظه لنا الكتابة ولم يحفظه إلا الشعر المدون بالكتابة . ومعنى ذلك أن القارىء الذى يقر الشعر فى صحيفة مكتوبة فانه لا يجد فيها من تجسيم الخصائص الحركية إلا ما يكون عادة للنثر من توفر على تجسيم المقصور والممدود ليس إلا . فماذا يحصل ؟

الحاصل هو أن القارىء لا يقتصر فى قراءة الشعر على المعطيات المكتوبة لأنها دون أن تفى بحاجة الشعر . ولكنه يضيف اليها عند تجسيمها تجسيما صوتيا كل الخصائص الاخرى التى تخلو منها حركة النثر وبها تتميز حركة الشعر من إسكات واهتضام وتعرية وقلب وما الى ذلك . وهى هى الحركة الايقاعية التى يومىء الشعر عند قراءته اليها ويدل المنشد والقارىء عليها . فيكون شأن القارىء اذا قرأ أن يجسم لنا بصوته حركة هى غير الحركة التى يقرؤها من الصحيفة كما دونت فيها وبحيث يختلف المقروء والمنطوق تماما .

كيف دون الشعر فى الصحيفة وفى العروض ؟ — يتبع —

محمد العياشى

من قصائد الاعداد القادمة

نقوش بالدم على صدر الحبيبة ..	**حلمى الزواتى**
امسك لسانك	**حسن الطنطاوى**
غناء الحب والرحيل	**بلقاسم التليجانى**
الشعر الأسود	**نور الدين الفرشيشى**
مناجاة قفه !	**عبد المجيد شيبه**

دمعة أسف

شعر : حياة بن الشيخ

أسفي على حبّي ووهم رجائي طال الحنين وطال ذلّ ندائي
أسفي على أمسي مضى في حسرة ما بين وصل حائر وجفاء
وحدي مع الحرمان أحيا أصطلي يأسا بلهفة رغبتي الخرساء
أرثي سنين ترقّبي والحزن يسحق مهجتي بالعزلة النّكراء
وشبابيَ الذّاوي يذوب توقّدا والهجر يصهد لوعة الأحشاء
شوق غريب صارخ بمشاعري يجتاحني بصبابة هوجاء
أين الفرار ؟ تردّدي خلفي يلاحقني .. يغلّلني بقيد وفائي
ومرافيء السّلوان قد سدّت أمامي عنوة ، وطوى العذاب عزائي
يا ويلتي فإذا تجاهلت الزّمان فكيف أهرب من سهام قضائي؟
اليأسُ في صدري يفتّتني ، ونار الضّيمِ تلهبني بعسفِ إبائي
أبقى على عهدي أهيم محبة .. العشقُ دربي ، والغرام كسائي
إن متّ وجدا فلْيعشْ أملي كَبَيْدَرِ تائه في وحشةِ الأنواءِ
لحن حزين يرتوي من حرقتي ذكرى يردّدها ظلام مسائي
يا فتنة أهديتُ أيّامي لها ، عمري فدى لعيونِكَ السّوداءِ

حياة بن الشيخ

حول مفهوم الظرف

بقلم : البشير المجدوب

الظرف من أشد المفاهيم الاجتماعية استعصاء على الايضاح والتحديد، وذلك لأنه ظاهرة معقدة يشارك فيها كيان الشخصية أجمع .. كتلة مركزة من خصائص ذهنية وشعورية وأخلاقية متضافرة متفاعلة . ولقد زادها عسرا وامتناعا تطاول أمد عمرها(1)وتنقلها في بيئات من المملكة الاسلامية مختلفة من حيث طبيعة العمران ، متفاوتة الحظ من الحضارة فاتسع مضمون النواة الاولى للكلمة وتطور تبعا للنمو الحضاري والازدهار الثقافي حتى لم يعد بينه وبين الظرف في عهده الاول الا نسبة ضئيلة .

فمن مظاهر هذه الصعوبة .. صعوبة التحديد وأسبابها ما نلاحظه من قرابة وثيقة بين الظرف ومفاهيم أخرى كالفتوة والمروءة والملاحة ، وهي قرابة تبلغ حد اللبس أحيانا (2) .

---

(1) لعل أقدم وثيقة وردت فيها لفظة « الظرف » كلمة عمر بن الخطاب في الحديث : « اذا كان اللص ظريفا لم يقطع » (انظر لسان العرب مادة ظرف) . ولفظة الظرف عايشت العصور ولا تزال قائمة الذات الى اليوم، واستعمالها في اللهجات العامية أصدق دليل على حيويتها .

(2) من الامثلة الدالة على تداخل مفاهيم الظرف والفتوة والمروءة ، واستعمال بعض هذه الالفاظ مكان بعض ما جاء في الاغاني : « وكانت **متفتيات** أهل مكة لا يطيب لهن منتزه الا بالدرامي » ج 7 ص 338 . وما جاء أيضا في كتاب « الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي » رواية « عن مطالع البدور » من أن حائكا كان لشدة اعجابه بالورد يتعطل عن العمل فيموسم الورد،فبلغ المأمون ذلك فقال : « لقد نظر هذا الرجل الى الورد بعين جليلة فينبغي أن نعينه على هذه **المروءة** » فأمر أن يدفع له في كل سنة عشرة آلاف درهم في زمن الورد . المصدر أعلاه ص 40 . انظر خبرا حول **فتوة** (أو ظرف) المتوكل . نفس المصدر ص 68 .

كما أن مما يعسر تحديد مفهوم الظرف انطباقه على فئات وأصناف من المجتمع مختلفة شديدة الاختلاف بل ومتعارضة من حيث الاخلاق والسلوك والنظرة الى الحياة ؛ فمن الظرفاء الماجن الزنديق والدين التقى، والمترف المتنعم والزاهد الصوفى ، والشريف من علية القوم والعامى ، تاجرا كان أو صانعا ، بصرف النظر عن حظه من الرزق ونوعيته حتى أننا لنجد الظرف يشمل الشطار والعيارين (3) ؛ وهكذا تطلق الكلمة على مواقف وأحوال متباينة متنافرة الى درجة التضاد .

ومما يزيد الامر اشكالا تعدد وجوه استعمال الكلمة ، فهى تتعدى فى دلالتها الاشخاص والمواقف والاحوال فتشمل أيضا الافعال والاحداث والحيوان والاشياء (4) .

فماذا تأتينا به كتب اللغة من عون ازاء هذا الجم الغفير من الدلالات المتعددة المتشابكة المتضاربة .. إزاء هذه المشكلة التى من أسبابها الرئيسية – فضلا عن عوامل الزمن والبيئة والنزعات الفردية – طبيعة اللغة العربية وعبقريتها الخاصة فى التعبير المتمثلة فى ذهابها مذهب الشمول والتأليف ؟
يقول صاحب اللسان ما ملخصه :

« **الظرف** البراعة وذكاء القلب يوصف به الفتيان الأزوال **والفتيات الزولات** ولا يوصف به الشيخ ولا السيد . وقيل الظرف حسن العبارة ، وقيل حسن الهيئة ، وقيل الحذق بالشىء ... وتظرف فلان أى تكلف الظرف ... الأصمعى وابن الاعرابى : الظريف البليغ الجيد الكلام ؛ وقالا : **الظرف فى اللسان** ،

---

(3) جاء فى الاغانى « وقف عليه أى (أبى العتاهية) ذات يوم سائل من العيارين الظرفاء وجماعة من جيرانه حوله ، فسأله من بين **الجيران** ... » ج 10 . ص 259 – 260 **انظر صورة من ظرف «الفتيان» فى كتاب البخلاء** (قصة الحارثى) .

(4) جاء فى الاغانى « ... فقال له : بلى والله يا أخى ! ما قوام أمرى الا ببقايا هبات الأمين محمد بن زبيدة وذخائره وهبات جارية له – لم يسمها – أغنتنى للأبد لشىء (أى حادثة) **ظريف** جرى على غير تعمد » ج 23 ص 422 – 424 . ويقول الجاحظ فى وصف الفيل : « والفيل أضخم الحيوان وهو مع ضخمه أملح **وأظرف** وأحكى ، وهو يفوق فى ذلك كل خفيف الجسم رشيق الطبيعة ... فصار مع غلظه وضخمه وفخامته أرشق مذهبا وأدق **ظرفا** وأظهر طربا » . الحيوان ج 7 ص 104 .

واحتجا بقول عمر فى الحديث : اذا كان اللص ظريفا لم يقطع ؛ معناه : اذا كان بليغا جيد الكلام احتج عن نفسه بما يسقط عنه الحد . وقال غيرهما : الظريف الحسن الوجه واللسان ، يقال لسان ظريف ووجه ظريف ، والظرف فى اللسان البلاغة ، وفي الوجه الحسن ، وفي القلب الذكاء ... وقال محمد بن يزيد : الظريف مشتق من الظرف وهو الوعاء كأنه جعل الظريف وعاء للادب ومكارم الاخلاق ، ويقال : فلان يتظرف وليس بظريف ... وفى حديث لابن سيرين : الكلام أكثر من أن يكذب ظريف أى أن الظريف لا تضيق عليه معانى الكلام فهو يكنى ويعرض ولا يكذب » .

خلاصة ما جاء باللسان أن الظرف هو الذكاء والبلاغة والبراعة وحسن الوجه والهيئة ، وأن الظرف وعاء للادب ومكارم الاخلاق ، مع تأكيد واضح لخاصية البلاغة .

إشارات مفيدة (5) لكن تغلب عليها النظرة الجزئية المجزئة لوحدة الظرف ، وهى لا تعدو أن تكون خطوطا عامة لان هذه الخصال قد نجدها عند الظريف وغير الظريف .

وقل مثل ذلك في كتب الادب المفردة للظرف المخصصة له فهى ، على كبير غنائها وفائدتها الجمة ، لا تقربنا كثيرا من الغاية التى ننشدها أعنى حقيقة الظرف وخصوصيته .

يقول الوشاء فى تعريف الظرف ما خلاصته : « اعلم أن عماد الظرف عند الظرفاء وأهل المعرفة والادباء : حفظ الجوار ، والوفاء بالذمار ، والأنفة من العار ، وطلب السلامة من الأوزار ... ولن يكون الظريف ظريفا حتى تجتمع فيه خصال أربع : الفصاحة والبلاغة والعفة والنزاهة ، وسألت بعض الظرفاء عن الظرف فقال : التودد الى الاخوان ، وكف الاذى عن الجيران ، وقال آخر : الظرف ظلف النفس (أى ضبطها) ، وسخاء الكف ، وعفة الفرج . واخبرنى أحمد بن عبيد قال : قال الاصمعى بن الاعرابى : لا يكون الظرف الا فى اللسان ، يقال : فلان ظريف ، أى هو بليغ جيد المنطق ، ومنه حديث عمر بن

(5) مثلا الربط بين الظرف والفتوة (أى حداثة السن) ، على ما فيه من تضييق لدائرة الظرف وحصره فى الشباب ، ففيه اشارة الى ما يتصف به الظريف (حدثا كان أو شيخا) من حيوية وخفة ونشاط . وكذلك الفرق بين الظرف والتظرف ، ويستخلص منه ان الظرف ـ أساسا ـ طبع ، ثم يأتى دور الادب والصقل والتهذيب .

الخطاب ... قال : وروى عن محمد بن سيرين انه قال : الظرف مشتق من الفطنة ، وقال غيره : الظرف حسن الوجه والهيئة ، وقال بعض المشيخة : الظريف الذى قد تأدب وأخذ من كل العلوم فصار وعاء لها فهو ظرف ... وسألت بعض متظرفات القصور عن الظرف فقالت : من كان فصيحا عفيفا كان عندنا متكاملا ظريفا ، ومن كان غنيا عاهرا كان ناقصا فاجرا . وقال بعض الادباء : الظرف ظلف النفس ورقة الطبع وصدق اللهجة وكتمان السر ..»(6).

الجدير بالملاحظة إبراز الوشاء للجانب الاخلاقى الاجتماعى من الظرف وتوفيته لحقه ؛ كما أن هناك لمحة ، وإن خاطفة الى الجانب الشعورى (التودد الى الاخوان وفيه إشارة الى معنى الصداقة ـ رقة الطبع) ، وهى معطيات تمثل خطوة لا بأس بها بالنظر الى ما جاء فى اللسان ، الا أنه يؤخذ عليه أنه يسوق تعريفات مختلفة ، كما اتفق ، دون أى تعليق ولا محاولة توفيق أو تأليف ، ولا تعليل لما بينها من فوارق ترجع الى اختلاف العصر ووجهة النظر .

أما ابن الجوزى فى « كتاب الظراف والمتماجنين » (7) فقد تدارك ـ وإن فى إيجاز ـ الجانب الشعورى والجانب الذوقى الفنى (8) وهو من مقومات

---

(6) الموشى ص 52 .

(7) هذا مختصر ما جاء من تعريف للظرف عند ابن الجوزى : « الظرف يكون فى صباحة الوجه ورشاقة القد ونظافة الجسم والثوب وبلاغة اللسان وعذوبة المنطق وطيب الرائحة والتقزز من الاقذار والافعال المستهجنة . ويكون فى خفة الحركة وقوة الذهن وملاحة الفكاهة والمزاح . ويكون فى الكرم والجود والعفو وغير ذلك من الخصال اللطيفة ... وقد يقال ظريف لمن حصل فيه بعض الخصال .. وقد يقال : الظرف فى اللباس وهو تخير المستحسن اللائق بذلك اللابس ... »

(8) يتمثل هذا الجانب الذوقى الفنى فى العبارات الآتية : « .. الظرف يكون فى صباحة الوجه ورشاقة القد **ونظافة الجسم والثوب ... وطيب الرائحة والتقزز من الاقذار والافعال المستهجنة** ... وقد يقال : الظرف فى اللباس ، **وهو تخير المستحسن اللائق بذلك اللابس** . كان خلف بن عمرو العكبرى من كبار العلماء له ثلاثون خاتما وثلاثون عكازا ، يلبس كل يوم من الشهر خاتما ويحمل عكازا ، فاذا نفد الشهر استأنف الاول.. وكان بعض الصوفية يخرج الى مكة فى رداء ونعل وطاق ومعه تفاح شامى فى قدح بلور يشمه طول الطريق » .

الظرف الرئيسية ، وقد اكتفى كل من صاحب اللسان وصاحب الموشى بالاشارة اليه اشارة مقتضبة مبهمة .

كما أن ابن الجوزى انفرد بذكر خاصية من أهم خواص الظرف وأعنى بها ملاحة الفكاهة والمزاح ؛ وقد حاول أيضا أن يجمع ويوفق بين مختلف مقومات الظرف فلم يأخذ بعين الاعتبار ما جاء من أقوال من شأنها أن تحد مفهوم الظرف (مثلا قول الاصمعى وابن الاعرابى) وهى تدل على ضيق نظر يتمثل فى التشبث بالمفهوم الاصلى لكلمة ظرف دون التفات الى حياة الكلمة ولا مراعاة لواقعها المتطور .

على أننا لا نخرج بفكرة واضحة كل الوضوح عن ماهية الظرف وميزته الخاصة به لولا ما فى الكتاب من أخبار ونوادر تصف لنا الظرف وصفا حيا وإن دار أغلب هذه النوادر وهى جد قصيرة حول الفكاهة والمزاح ، وبراعة الاحتجاج ، وحسن التخلص . وهى لذلك لا تعطينا صورة وافية شاملة عن الظرف .

ومجمل القول فيما يخص كلا من « الموشى » و «كتاب الظراف والمتماجنين» أن ما جاء فيهما من تعريفات هو دون ما توحى به مادة الكتابين وما تنطوى عليه من معلومات وأوصاف وأخبار ظلت مادة خاما لم تستغل كما يجب ، ولم يلتفت الى ما فيها من دلالة على الواقع الاجتماعى الحى تاريخيا كان أو معاصرا. فكل من الوشاء وابن الجوزى قد بقى أسير المفاهيم والتعريفات اللغوية ، والمعاجم ، كما هو معلوم ، وخاصة المعاجم العربية تقصر عن إعطاء صورة أمينة وافية من الحياة ، ولم يحاولا استخلاص لب الظرف وروحه من بين شتات جملة الخصائص المكونة له ؛ وهكذا قد بقيا عند مرحلة الوصف لم يتعدياها الى مرتبة التعريف الحق (9) .

---

(9) وكذلك الشأن بالنسبة الى صاحب كتاب « الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس » فقد اقتصر هو أيضا على الوصف الخارجى لظاهرة الظرف . قال : « ... وانما الذى يميز هذه العصابة من الناس (يعنى الظرفاء) ، هو ما تفردت به من صفات لا تجدها عند الناس جميعا . فقد كان لها عناصر بسيكولوجية خاصة ميزتها من غيرها . كرهافة فى العواطف ، واضطرام فى الاهواء ، ولطافة فى الشمائل ، وتتبع الجمال ، والتأنق فى اللباس والطيب والزينة ، والهيام بالرياض والازهار ، والولوع بالطريف الذى لم تعرفه العوام ، واللباقة

ولعل أحسن عون وأنفع زاد ما تقدمه لنا أمهات الادب (من أخبار وملاحظات وتعليقات) ، ونخص بالذكر منها مؤلفات الجاحظ والتوحيدى وكتاب الاغانى الذى يعتبر بحق « قاموسا » للظرف ومعرضا زاخرا بنماذج من الظرفاء متعددة نابضة بالحياة .

على أن الانتفاع بهذه الكتب القيمة ليس بالامر الهين ؛ إنها تقتضينا قراءة خاصة ... أن نستنطق النص فى حياده الظاهر وصمته البليغ الممتنع بالرجوع الى القرينة والسياق ، سياق النص الواحد ، وأحيانا الى سياق جملة من الاخبار المتوالية المتصلة بمحور واحد ـ لتتيسر لنا عملية تحديد معنى الظرف فى مختلف الاخبار والنوادر .

ومما يحتم الرجوع الى سياق مجموعة من الاخبار أن يكون الكاتب فى موقف إجمال وإيجاز قد نحا فى التعبير منحى التأليف والتركيز ، فيكتفى بذكر كلمة الظرف منفردة شبه منقطعة ، فلا يزول ما يحف بها من إبهام أو غموض إلا بوضعها فى إطارها الدلالى الحى ، فاذا هى جزء تنتظمه وحدة ناطقة معبرة .

جاء فى كتاب الاغانى : « أول من غنى بالعربى بالمدينة طويس ، وهو أول من ألقى الخنث بها ... وكان لا يضرب بالعود وانما كان ينقر بالدف ، وكان **ظريفا** عالما بأمر المدينة وأنساب أهلها وكان يتقى للسانه ... » (10) .

وقد ترد الكلمة مشفوعة بأوصاف أو نعوت هى بمثابة التحليل والشرح لها ، وكأن الكاتب عمد الى مرحلتين فى تفكيره وتعبيره فسلك أولا طريق الاجمال والتأليف ثم طريقة التفصيل والتخصيص ، مؤكدا أبرز خواص الظرف عند الشخصية .

يقول صاحب الاغانى : « ... وهو (أى مطيع بن إياس) شاعر من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية ، وليس من فحول الشعراء فى تلك ، ولكنه كان **ظريفا** خليعا **حلو العشرة مليح النادرة** ماجنا متهما فى دينه بالزندقة .. » (11).

فى التعبير عن الاحساس والافكار ، وزهو حلو يشتد عند المتظرفات ، وعناية بالشعر الغنائى الغزلى الذى يترجم عن العواطف والخواطر ، واحتفال بالحب والهوى ، وهيمان فى أثر اللذاذات والمجون » . المرجع أعلاه ص 26 .

(10) الاغانى ج 1 ص 322 .

(11) الاغانى ج 44 ـ 45 ص 159 .

وقد يسلك الكاتب مسلك التحليل والتفصيل وحده دون أن يذكر الظرف، مستعيضا عن الكلمة بجملة من الاوصاف والدلالات المعادلة لها ، أو الخصائص التى تنطوى عليها وتتألف منها صفة الظرف ينثرها نثرا .

« ... وكان (أبو عيسى بن الرشيد) من أحسن الناس وجها ومجالسة وعشرة وأمجنهم وأحدهم نادرة وأشدهم عبثا ... » (12) .

ومثله : « .. كان عيسى بن دأب كثير الادب عذب الالفاظ ... وكان لذيذ المفاكهة طيب المسامرة كثير النادرة جيد الشعر ، حسن الانتزاع له... » (13).

وكذلك قوله فى التعريف بشخصية المغنى حنين الحيرى عند بدء اتصاله بالفن : « كان حنين غلاما يحمل الفاكهة بالحيرة ، وكان لطيفا فى عمل التحيات ، فكان اذا حمل الرياحين الى بيوت الفتيان ومياسير أهل الكوفة وأصحاب القيان والمتطربين الى الحيرة ، ورأوا **رشاقته وحسن قده وحلاوته وخفة روحه** استحلوه وأقام عندهم وخف لهم ... » (14) .

وقيمة هذه التدقيقات لمفهوم الظرف ومقوماته ، ووجه امتيازها على التعريفات المجردة الباهتة التى عرضنا لها آنفا أنها جاءت ضمن إطار تاريخى محدد يجعل من نصوص الاغانى وثيقة بالغة الاهمية يمكن بفضلها أن نضبط الى حد ما تاريخ الظرف وتطوره خلال القرون الثلاثة الاولى .

على أن أعظم فائدة نجتنيها من أخبار الاغانى خاصة ـ وهى تعتبر بحق تراجم أدبية ذات وحدة مركزة هى وحدة شخصية الشاعر أو الاديب المترجم له ، لا ركاما من النوادر والحكايات المنتثرة كما اتفق ـ انها تصور لنا الظرف وتمثله تمثيلا من خلال شخصيات زاخرة بالحياة ، وذلك لما أوتى أبو الفرج من قدرة عجيبة على تقمص بيئات وعصور مختلفة يبعثها بعثا ويعيد اليها حياتها الخاصة وجوها النفسى الخاص ، ويبرع البراعة كلها فى محاكاة لغة كل منها « محاكاة فنية » مبدعة حتى كأنه عايش بل عاش حقا هذه العصور والبيئات جميعا (15) ، فأمكننا بذلك أن ندرك الظرف ادراكا مباشرا حميما .. ادراك

---

(12) الاغانى ج 33 ص 187 .

(13) البصائر والذخائر المجلد الثالث (1) ص 333 .

(14) الاغانى ج 6 ص 238 .

(15) هذه القدرة العظيمة على تقمص روح شتى البيئات والعصور العربية الماضية وتصوير حياتها تصويرا قوى الايحاء يمثل الواقع تمثيلا .. وهذه المرونة العبقرية فى الاسلوب ميزة انفرد بها أبو الفرج « القصاص المؤرخ الفنان » فى الادب العربى كله لم يشركه فيها أحد .

الحى للحى ، وأن ننظر الى هذه الظاهرة فى الصميم منها نظرة تأليفية حركية أعنى فى حال عمل الصفات والعناصر التى يتألف منها الظرف وتفاعلها وتأثيرها فى الشخصية ، فنهتدى الى غاية الظرف والطريق المؤدية اليه .. الى أصل القوة الدافعة له ومنحناها الحى ، وباختصار الى روح الخلق فيها .

فالظرف أساسا نظرة خاصة الى الحياة وموقف خاص منها ، ومن الناس والاشياء .. موقف يلتقى فيه الحس الجمالى الحاد بالوعى الخلقى العميق ، فاذا هما وحدة لا تنفصم تحفز الطريف الى تجاوز ذاته على جميع المستويات والاقتراب من أفق انسانيته ، فلا يستطاع لذلك تبين طبيعة هذا الدافع وتمييز عناصره لانه فكر وخلق وفن .. حاسة مشتركة التكوين ، واحدة الهدف والمفعول . فالظرف ليس علما ولا فنا ولا خلقا فحسب ، هو كل ذلك وفوق ذلك (16) .

والظرف نظرة فنية « متفلسفة » الى الحياة .. نظرة تعنى جهدها **بالكيف** وتعتمده مقياسا فى كل شىء . فالظريف يعيش الفن ويحققه فى حياته تحقيقا، والحياة عنده هى أساسا **أسلوب** وطريقة .

ولعله فى وسعنا ، على ضوء ما تقدم ، أن نحاول تقريب معنى الظرف وتسليط مزيد من النور على حقيقته لا تعريفه لان الظرف ككل ظاهرة حية يتعذر تعريفه ، **فالظرف صياغة فنية للحياة ، والظريف هو ذلك الذكى الخفيف الروح الرقيق الشعور يسعى جهده لبصوغ حياته ـ ذوقا وتفكيرا وبيانا وسلوكا ـ صياغة ممتازة (17) تنأى بها عن السخف والابتذال مع حرص على الاصالة والابتكار**،فالظرف كالفن تماما..انه خلق وابداع أو لا يكون.

البشير المجدوب

---

(16) من أحسن ما يستشهد به فى باب التفرقة بين العلم والفن قول الجاحظ: « ... لان النحوى الذى لا **إمتاع** عنده (أى لا أدب عنده ، والمقصود بالادب هنا الجانب الفنى ، جانب الخلق منه) كالنجار الذى يدعى ليعلق بابا ، وهو أحذق الناس ثم يفرغ من تعليقه ذلك الباب له فيقال له : انصرف ، **وصاحب الامتاع يراد فى الحالات كلها** » . البيان والتبيين ج 1 ص 253 تحقيق السندوبى القاهرة 1926 الطبعة الاولى .

(17) جاء فى البيان « حول هذا المعنى ما يلى : « وكان محمد بن عباد بن كاسب يقول : « والله لفلان أثقل من مغن وسط ، وأبغض من ظريف **وسط** » . ص 111 . ومما يتصل بهذا المعنى قول الجاحظ : « ... كما

ان النادرة (أى النكتة) الباردة جدا قد تكون أطيب من النادرة الحارة جدا . وانما الكرب الذى يخيم على القلوب ويأخذ بالانفاس **النادرة الفاترة التى لا هى حارة ولا هى باردة . وكذلك الشعر الوسط ، والغناء الوسط** » . البيان ص ١١٠ ــ ١١١ .

المصـــــادر

الجاحظ : كتاب الحيوان ، 7 أجزاء ــ البخلاء ــ البيان والتبيين ، 3 أجزاء ــ الرسائل ، جزءان .

التوحيدى : الامتاع والمؤانسة ، 3 أجزاء ــ أخلاق الوزيرين ــ الهوامل والشوامل ــ البصائر والدخائر ، 6 أجزاء ــ الصداقة والصديق ــ رسالة فى علم الكتابة .

أبو الفرج الاصبهانى : الاغانى (منشورات دار الفكر ــ مكتبة الحياة) بيروت 1955 .

الوشاء : الموشى .

ابن الجوزى : كتاب الظراف والمتماجنين .

الثعالبى : كتاب خاص الخاص ــ كتاب سحر البلاغة وسر البراعة .

ابن قتيبة : عيون الاخبار ، ج ١ (طبعة دار الكتب المصرية) .

ابن الرقيق القيروانى : قطب السرور فى الاشربة والخمور .

أبو المطهر الازدى : حكاية أبى القاسم البغدادى .

ابن المعمار البغدادى : كتاب الفتوة .

ابن حزم الاندلسى : طوق الحمامة .

المـراجـــع

صلاح الدين المنجد : الظرفاء والشحاذون فى بغداد وباريس ــ كتاب الخلفاء والخلعاء فى العصر العباسى .

أحمد أمين : الصعلكة والفتوة فى الاسلام .

العقاد : شاعر الغزل .

المـراجـع الاجنبيـة

— Brockelmann. art. Wassà' in E.I (I) IV, 1186;

— Ferid Ghazi. Studia Un groupe social «Les Raffinés». Studia Islamica 11 / 1959.

J. Claude Vadet L'Esprit Courtois en Orient dans les cinq premiers siècles de l'Hégire

الارخبيل

الفصل الثاني (*)

رواية : يوسف رزوقه

تغذينا والشمس تأخذ فى الهبوط صعودا الى ليل ستخفيه .

آثرنا العودة الى ديارنا قبل أن يداهمنا المساء .

تشاغلت عن كل من حولى وما حولى . وفى الواقع ، كنت فى ذاك الحين مشغولا بشخص يهمنى .

التقيت بها مغرب الشمس فى مطمئن من الارض .

كانت تحمل فى يد : قرطل عنب ، وفى أخرى : قرطل تين ، وتحت الابط : حضنا من العليق علفا للارانب .

....

رية لا تقرمز شفتيها .

رية فتاة حصان ورزان ، تدلك لغبها بالسواك حتى يحمر .

رية بدوية فى كل ما فطرت عليه .

....

وضعت القرطلين أرضا .

تلفتت يمينا وشمالا وصافحتنى .

كان فى عينيها خوف من مفاجأة قد تحدث ، ورغبة ملحاحة فى المكوث معى .

وكانت ــ وهذا هو المهم ــ رائعة فى نظرى وهى تحمل المعجر والقرط والخلخال والوشم بين الناظرين .

سألتنى تأجيل اللقاء .

(*) راجع « الفكر » العدد 4 جانفى 1980 ــ السنة 25 .

فسألتها تحديدا للقاء ثان .

فاتفقنا وافترقنا .

وظلت نظراتي تلاحقها وأفكاري ، حتى اختفى وجهها في الظلام .

في تلك اللحظات بالذات ، سمعت خرفشة في الحصيدة .

استدرت بوجهي .

كان خالي مسعود يتقدم نحوي . في يديه : عنقود ثقيل من فخاخ الارانب ، ومخلاة معبأة بروث البهائم .

ابتسمت في وجهه بعفوية تامة .

لم يعبأ بوجودي منفردا في مكان خال . أشار علي أن أرافقه .

حدثني ونحن نسير جنبا الى جنب عن مسارب هامة تمر بها الارانب ليلا .

وحدثني بالتفصيل عن معالف في هذا الحقل أو ذاك ، بناها على شكل صفائح ، بفلاق من طوب طيني هش ، عمر بعضها بالخروب ، وبعضها الآخر بالخوخ أو التفاح .

وقال : ان معالف كثيرة استأنست بها الارانب .

واستخلص ان الارانب متى رأت في المعالف وكرا يدوم ، فانها تكون قد ضربت موعدا مؤكدا مع الموت .

توقف خالي ثم انحنى .

وزع نظره في كل اتجاه . لا أحد . اذن فليطمئن .

أعمل اصابعه العشرة في التراب وحفر حفرة في مدخل المعلف لها حجم الفخ تماما .

أخرج من المخلاة روثا جافا ، طحنه بين كفيه حتى صار مسحوقا ناعما .

وبأنامل حذرة : أخذ يصبه صبا متأنيا على وفاض الفخ المنقبض .

ثم ،،، بأنامل حذرة أيضا ، ذر عليه التراب حتى توارى .

★ ★

فى هذا الظلام المثقل بالروائح المختلفة ، تملكنى رجوع مفاجىء الى المدينة المغروسة فى ذاكرتى .

ظلت تزعجنى حين تحضرنى .

أضواء مظلمة ، جافة كقلب يهودى امتصت ماء وجهه براغيث الحقد والكراهية .

أرصفة تنتعلها فى اليوم الواحد : كم قهرمانة وكم سيارة غرباء ، وكم بشر تقوس ظهره من حمل القفة لترجيح الكفة .

نوافذ مضاءة تطل منها رؤوس تلمع كالفرنيز ، محشوة تبنا وظلاما حالكا . الخ ، الخ ، الخ ...

تلك المدينة حملتنى زمنا طويلا وطرحتنى على جليد الارصفة رجلا جنينا ، مخسوء النظرات .

عرفتنى داهية ، ردىء القسمات ، أدخل البيوت من أبوابها .

لعنتنى فى أول لقاء .

كنت بدويا ، معوجا ، يعسر تثقيفى وهضمى .

ولكنى بشيطنتى الخاصة ، اقتلعت وجهى المغطى بالتضاريس وزرعت مكانه وجها يليق بالمقام .

ضحك منى أبناء عشيرتى ضحكا زلزالا . اعتبرونى قافزا على حجمى . هم على حق . وانى لمشاطرهم الرأى .

غير أنى لخصت لهم وجهى فى ثلاث كلمات : نفاق + نفاق = اتفاق .
ومن يومها ، مكنتنى المدينة من نفسها ، وأرضعتنى حليبها الملوث .

★ ★

ـ عبد الحميد ، سأبقى عند هذه الحمادة . اذهب أنت . تعش ثم جىء . احمل حصيرا ومخدة وبرنسى الصوفى ولا تنس ماعون الشاى .

★ ★

نصب خالى مسعود الفخاخ ، كل الفخاخ ، كان الصرد الليلى يهبط على رأسينا لينا ، رخوا ، كالعهن المنفوش ، فنحس حلولا تاما بكل ما يحيط بنا من كلأ وجماد وعناصر ...

خطواتي وأنا في طريق الرجوع تتهاوى ببطء لكأني على سطح القمر .

....

في هذا الظلام الدامس ، يختبل المبتلى بفرط الحساسية ويتفجر الشعر تفجرا ، من صلب الاركان المنسية .

....

قبل ان يطالعني ضوء البريميس من رحبة المنزل الرحبة ، استقر في ذاكرتي صديق قديم أبعدتني عنه المسافات الضوئية زمنا .

كنت أختلف اليه ومعي أصدقاء ، فنقضي معه ، تزجية للوقت ، زمنا مرتبكا غرابة ، في بيت له متخم غربة .

ظل يقحز كالجرادة في مساكب ذاكرتي المظلمة .

سلطت عليه الضوء . اختفى . تقهقرت بالذاكرة سنوات الى الوراء ، حتى انتهيت الى مسكبة شبه مضاءة رأيته فيها شامخا كالنخلة يتحدى ، ويرسم نصف ابتسامة ملجومة على شفتين سيجهما الملح والظمأ .

....

....

وأنا أتعشى ، سمعت كلاما لاقى في نفسي هوى :

قال أبي وهو يترشف شايا لكأنه « المربى » الخاثر :

ـ سويلمي ، بشر يستحق كل الخير .

وقفت انتباهي على ما سيضيفه أبي ولكنه لم يضف أي شيء .

قبل لحظة ، كان سويلمي في ذاكرتي . والآن ، أبي يذكره أمامي . يا له من توافق في الفكرة والزمن .

لست أدري كيف بدأ الحديث بين أبي وجدي وعمي الساقجي حول سويلمي .. لكني لاحظت انهم يكبرونه ، ولاحظت أيضا ، احترازا ضمنيا في حديثهم عنه .

ـ بعد سويلمي ، كل الرجال أشباه رجال . كان رجلا صمدا ، يرهبه الصغير والكبير ، وكان الى جانب هذا ، طيبا الى أبعد الحدود .

توقف عمي الساقجي عن الحديث .

الى هذا الحد ، لا جديد . تكلم جدى . قال نفس الكلام وسكت .

★ ★

اذن ، وراءك ما وراءك يا سويلمى . فى البدء ، عهدتك شفافا .

وها أنى أعود فألقاك خبرا لغزا . أضرمت فى القرية المطمئنة حريقا ولـم نعد نعرف لك مكانا أو أثرا .

لا شك أنك من طينة تختلف . أو أنك اختبلت فى غيبتى .

★ ★

رددت الباب ورائى وطفقت أتمشى ، مشتملا ببـرنس صـوفى وأحمـل حصيرا على كتفى ومخدة تحت ابطى وقرطلا فى يدى يحـوى ماعون الشاى .

كانت خطواتى رخفة كالعجين . وكان ذهنى سارحا لا يشكـلـه شـكـال ونظراتى طائشة لا تردعها شكيمة .

لاحظ خالى سهومى فزجرنى :

ـ يكفى يا عبد الحميد ، تهويمك يذكرنى بسويلمى . حتى انت يا خالى مسعود ، مسكون بسويلمى ؟

تركت خالى فى مزبرة من الارضين ، يكسر بعض الفحمات الغليظة بمرزبة يصطحبها دائما سيسهر الليلة هذه ، حتى انبثاق الفجر .

قد يصطاد أرانب كثيرة وسيفاجئنا بها صباحا وهو يترنح تعبا ، فرحا ، تيها .

★ ★

خمس سنوات لم ألتق بسويلمى . فى آخر لقاء ، صافحنى بحرارة . غرس عينيه فى وجهى . وزننى بنظرات ذات صمت صائت . مـرر عـلى شفتيـه ابتسامة ركنية أحسست تجاهها انى أتضاءل كفص الملح .

نظر الى أسفل قدميه . تفل على الارض ، ثـم ودعنـى ، وانقلـب يتمشـى متزنا ، مستقيما ، حزينا .

وقبل خمس سنوت أيضا ، تناهى الى علمى خبر مقتضب يقول بان سويلمى مريض .

أشعرت أصدقائى . لكنهم واجهونى بالصمت ، فقررت أن أعوده وحدى .

ذبحت فروجا ، وطلبت من أمي أن تعد لي عشائي مع سويلمي .

توجهت الى أقرب حانوت وشريت دبوزة من « ماء الزهر » وشايا ، وسكرا وسارعت بالرجوع .

كانت أمي قد فرغت توا من رش الابزار على العشاء .

....

بين قوسين : أمي لها باع وذراع فى فن الطبخ . وأبي يحلف أنه ما تزوجها الا لمرونة فى يديها .

فى يوم عجاج ، صادف أن تغذى عند ثقة من الحجاج ، ولما انتهى ، أثنى على اليدين اللتين طبختا الغذاء ، فأفاده الشيخ بانه من اعداد ابنة لـه تسمى لويزة .

فعاد الى البيت . وظل مسكونا بها حتى تزوجها .

....

وأنا أمد الخطى ، تصورت سويلمي يصهل كالحصان من فرط الالم .

المسافة بيني وبينه تتقلص لحظة فلحظة .

بدأت اتشمم بيته الموحش وهو يتعجج دخانا جافلا من شبح نسمة أو هبة ريح .

كان بيتا غارقا فى صمت قاتم وظلام رصاصي ثقيل .

وكانت دوالي الكـرمة تتشابك ، تعترش الاوتاد والحائط الامـامي للبيت ، لتكون عريشا يستظل به حين الظهيرة .

الكلاب تتتابع على سكة زمنية موحدة ، واحيانا بالتناوب .

اقتحمت الزريبة فاعترضت أنفي ريحة للزبل والروث معتقة .

هبهب كلب فبسبست عليه ، فانقلب يؤرجح ذيله يمينا وشمالا مرحبا بي

جفلت من شبحي ناقة مشدودة الى رزة فى الحائط .

وفي قفا البيت ، تداخل قوق الدجاج فوق السدرة .

★ ★

خبطت على الباب بجمع يدى .

سمعت وأنا فى الانتظار ، مقطعا حزينا من أغنية ، لست أدرى فى اى شريط سينمائى هندى ، سمعتها بالضبط ؟

خفتت الموسيقى ، وانفتح الباب على هيكل عظمى ، جاحظ العينين .

وهو يصافحنى ، هالنى جسده المتوهج حرارة . كان ساخنا كمشيمة جنين هابط لتوه من الرحم .

تغمدته بأسئلتى لاطمئن عليه .

فتغمدنى بالشكر الجزيل ورجانى أن أتخذ مكانا حذوه على الدكة .

بيت متواضع جدا : جدران مترهلة من الحمأ المسنون . سقف من أخشاب تربة ، مسودة ، تتوغل فيها العثة حتى الصميم .

وفى الركن : جرار ملوطة بالزيت ، متكئة على الحائط ، تتكدس فوقها معاجن وبعض الصوانى والطناجير المعبأة دقيقا أو قديدا أو تينا مجففا أو فلفلا مملحا او شيئا آخر ..

وفى الجدران : مسامير مدقوقة ، اخشوشنت صدأ ، علقت بها سراويل متسخة وأقمصة خرق عليها الذبان والبرغوث ، وغرابيل ، ودلو يبدو أنه مشروم ، ومظلة حال سعفها لقدامة العرق المتبقى فيها من كل صيف .

مجلات ، كتب مبعثرة ، وثلاث مجلدات وجرائد صفراء بدأت الفئران فى قرضها ، تشغل حيزا كبيرا من الدكة .

تطلعت اليها كالمنبهر .

ركزت نظرى على القنديل . كان عتيقا نوعا ما ، ينبعث منه ضوء باهت مشوب بشيء من الظلام .

تعشينا وثالثنا الصمت .

احتل سويلمى مطرحا لصق الحائط ، غارسا مرفقه في مخدة الكرينو الحرشاء،

فى حين تربعت أنا قدامه على جلد كبش صوفه يتآكل .

سأعد الشاى ، وأغنية ذات نكهة مميزة وأجنحة مسافرة ، تغمرنا خدرا مدمرا وسفرا بعيدا .

قلت أشياء كثيرة وسويلمى صامت .

صمت ربع ساعة تقريبا وسويلمى صامت .

تلهيت بتوريق الكتب والمجلات وسويلمى صامت .

قدمت له كأس الشاى الاول وهو صامت .

قدمت له كأس الشاى الثانى وهو صامت .

تعفن الصمت وهو صامت .

تجمعت فى عينى الدموع وهو صامت .

لست أدرى كيف طاوعتنى الدموع فى ذلك المكان المشبع بروائح الصمت المبهم .

ساءلته بنظراتى فبكى كعانس خلفها القطار فى المحطة .. ما كنت أتصور سويلمى حساسا الى هذه الدرجة .

زرفت من احدى الثغرات فى الجدار وزغة ، زئبقية النظرات .

التقطت بسرعة خفا بنية سحقها سحقا ، لكنها أفلتت .

فى هذه الاثناء ، سمعنا صوتا أجش نعرفه . فتحت الباب ، فدخل النعناعى : بدويا فى كل ما يحمل ، بدويا فى كل ما يسأل ، بدويا فى كل ما شب عليه .

دخلت معهما فى حديث سيطول ، ثم استأذنت وانسحبت .

كان الليل ظلاما يكتنز فراغا هائلا .

وكانت القرية جثة مهملة يخربها نباح الكلاب ويعفنها الموت الخرافى الدائم.

طويت صفحة سويلمى طيا يقتضيه عادة ، تباعد المسافة بينى وبين الحدث.

ومن ذلك اللقاء ، ظل سويلمى خارج ذاكرتى ، خمس سنوات بأكلمها .

وها هو يعود : جزيرة غامضة ، متناقضة مع السير العادى للفصول الاربعة

★ ★

الندى .

وأنا جاف أحمل قميصا مشجرا ، وسروال دجين متفسخ اللون ، وحـذاء رياضيا قديما ، ورأسا مغلقا تتطاحن بين أسواره زقزقات مهشمـة لعصـافير مكبلة الاجنحة واحمل قلبا يضخ دما ساخنا وانقباضا قاتما يفرز كما الاخطبوط زيتا درديا .

الزنابير تشرخ جسدا للصمت وتفتح خندقا للنشاز مـوحشا ، والكـروان يغمس جناحيه ونعيقه في الظلام .

تراءى لي أبي في ضوء البريميس ، يراقب عمي الساقجـي وهـو يـركـب الجاروشة يدرس سنابل الشعير ، ويميل حيث تميل الفرسان الجوادان .

رآني .

أشار على بيده أن تعال . أمرني أن أنحنى وأحضن التبن فأنقله الى تربيعة متاخمة للبيدر . ذعنت له كارها .

أبي اقطاعي ومتزمت . كز الى حد الشطط وسخي الى حد الشطط . طيب جدا وسيىء جدا وجاد جدا . يحب المطر البدري ويكره القحط . يضع المليم فـوق المليم ويكون أبدا منضبطا يتعامل بالارقام ولا يعمد اطلاقا الى التعميم .

أبي يكرهني ، لاني في نظره : غاض النظر عن كل ما من شأنـه أن ينمـي ثروتنا .

يأخذني على أني ولد خامل ، مخيب للظن ، وحياتي حياة الخروع : يطاول الاشجار المثمرة ، ويمتص على حسابها الماء والاسمدة .

أبي يشكوني دائما الى أمي ويحلف جازما أني بيضة بائرة ، أعمل على شـد العجلة الى الوراء .

ابي ينهال على أمي أحيانا سبا وتبكيتا ، لانها ـ حسب رأيـه ـ أفسدتنـي والقمتني مع المصاصة الدلال . فانتهيت عاقا ، آكل الغلة وأسب الملة .

أبي قاسي طويلا والمكابدة خلقت منه رجلا قاسيا .

أخي الصغير يجرى متعثرا خلف الجاروشة ، فيخطفه عمى الساقجى من ذراعه ويردفه وراءه .

وأنا وابن عمى نحضن التبن المندى . نرصفه على خيشة قديمة ويمسك كلانا بطرفين منها ونهرول بها على نحو عشوائى . فينهرنا أبى :

ـ ما هكذا يكون العمل . هيا ، كفا عن هذا العبث ، لستما من صنف الذرارى

يكربس ابن عمى على كومة التبن حتى يغوص كامل جسده . ما ألذ الاستلقاء على التبن المندى رغم وخز السفا والغبار .

يطلع القمر وتنعكس الزياتين ظلالا مستطيلة تأخذ فى التقلص شيئا فشيئا. أمرنا عمى الساقجى أن نكف ونترك التبن يتخلص من كل حبة .

أشعل ابن عمى سيڤارو وتوجهت أنا الى المنزل ، وكلى جذاذات من احتراق وقلق .

* * *

كان جدى فى السقيفة مضطجعا على ظهره ويبدو كأنه يحلم .. دنوت منه . جلست اليه . وبصوت كله رجاء ، قلت :

ـ جدى ، ماذا تعلم عن سويلمى ؟

خزر فى وجهى خزرة تحتية وكمن لا يكترث ، أشار بيد مرتعشة أ ن دعنى من هذا الموضوع .

لكنى أصررت ، وكنت على دراية بما يرضى جدى ، فمنحته حقة نفة ، كنت جلبتها معى لهذا الغرض .

ضحكت عيناه واعتدل فى جلسته وبدأ بالحديث .

ـ يتبع ـ

الإرادة في ديوان « أغاني الحياة »

بقلم : أحمد الشتيوي

قد وعدت بالعودة الى شعر الشابى على حدة (1) لأنظر فيه وأبين أنه شعر صادر عن شاعر مؤمن أصدق الايمان (2) مقدس للجهد البشرى مبشر باسترداد المسلم مكانته فى العالم . ان هذا الجانب بقى مهملا إذ ان الدراسات التى اعتنت مؤخرا بديوان « أغانى الحياة » (3) لم تحاول أن ترى فيه غير ما رأت . ولا نتعجب من هذا الامر فالمنطلقات التى نعتمدها لدراسة أدبنا ـ القديم منه والحديث ـ هى منطلقات غريبة فى منهجها ومحتواها . أما من ناحية المنهج فنحن لا نعتنى به ولا نناقش أمره ، لان هذا المنهج المسمى بالعلمانى هو منهج قديم اخترعه حكماء اليونان وطبقوه فى حكمهم وأدبهم ، ثم كشف عنه المسلمون ، من بعدهم ، بعد أن درس أو كاد ، وجعلوا منه ركيزة أعمالهم

---

(1) مقال آراء فى مذكرات الشابى ورسائله ، الفكر السنة 25 العدد 3 ديسمبر 1979 ص 53 .

(2) يقول الدكتور عمر فروخ فى فصل الايمان والوثنية : « أبو القاسم الشابى ابن تونس المؤمنة وولد فقيه كان قاضيا شرعيا ثم انه تلميذ جامع الزيتونة ولكننا لا نجد أثر الدين عامة ولا أثر الاسلام خاصة فى ديوان الشابى الا الفاظا نادرة تطفر الى لسان الشابى فى ساعات المحنة والبلوى من غير دلالة على تقوى أو ايمان . أما الغالب على ديوان الشابى فتساؤل يمتزج فيه الهزء بالشك ثم يفضى به ذلك التساؤل الى الحاد واضح ... » انظر الفكر السنة 11 العدد 7 أفريل 1966 ص 113 .

(3) طبع عدة مرات والطبعة التى نعتمدها فى هذا البحث هى طبعة الدار التونسية للنشر سنة 1970 والملاحظ أنه أضيفت اليه قصائد أخرى لم تظهر فى الطبعة الاولى .

الأدبية والعلمية ، ونحن نخطىء عندما نتجاهل طرق البحث والتقييم عندهم . وأما من ناحية المحتوى فان جل الدراسات التى اعتنت بشعر الشابى متغربة ـ وكأن الفكر والابداع وقف عليهم دون سواهم • وما على القارىء الا أن ينظر فى أى دراسة حتى يجد صاحبها يقارن بين فلان الشاعر العربى وغيره من شعراء الغرب ، بل قد ينقلب الأمر الى اهمال شأن ذلك الاديب العربى لينقلب حديثنا حديثا عن الاديب الغربى الذى قصدنا المقارنة به • وهذا الامر دفعنى الى أن أنظر فى شعر أبى القاسم من أرضية عربية اسلامية اذ أنى لا أعتقد أن يتأثر فنان تغذى بالثقافة العربية الاسلامية (4) وتربى فى عائلة وثقافة عربية اسلامية وعاش فى بلد عربى اسلامى ، وخاطب عربا مسلمين ، لا أعتقد ، قلت ، أن ينقطع هذا الفنان عن هذا الماضى وهذا التأثير ليرتمى فى احضان أدب أو نمط من الادب دخيل هو الرمنطيقية ، وحتى ان سلمنا بأن الشابى قد تأثر بهذا فلا يجب أن نسلم بأنه قد قلب ظهر المجن لشعبه وأمته وأصله • بل أنا أعتقد أن الشاعر قد كان ـ وما زال ـ قلب الامة النابض • وقد عبر عن ذلك فى مستويين إثنين : مستوى الارادة الجماعية الشعبية ومستوى الارادة الفردية • فكيف يمكن اعتبار « أغانى الحياة » ديوان الارادة من الزاوية الاسلامية خصوصا والزاوية الانسانية عموما ؟ وماذا تعني الارادة عند الشابى ؟ وهل يحق لنا اعتباره فيلسوف الارادة فى هذا القرن وفى هذه البلاد العربية ؟

1 الشعب : أو الارادة الجماعية :

ان مفهوم الشعب مفهوم محدد فى شعر الشابى ، فهو يعنى به البلاد التونسية بحدودها السياسية المعروفة وبشعبها العربى الاسلامى الاصيل وبتاريخها القديم والحديث (5) فما هى طبيعة هذا الشعب ؟

---

(4) قدم أبو القاسم الى العاصمة سنة 1339 هـ ـ 1920 م للدراسة بجامع الزيتونة فى الثانية عشرة من عمره ••• كون (أ) نفسه ثقافة واسعة عربية بحتة ••• » ترجمة الشابى من ديوان « أغانى الحياة » طبع الدار التونسية للنشر 1970 ، ص 13 •

(5) انظر مثلا قصيدة « تونس الجميلة » ص 24 •

1 ـ الشعب المتخاذل :

ان السنين القليلة التى عاشها الشابى هى سنين يقظة واحساس ووعي وادراك ، هى مكثفة ومكتظة بالتأمل فى طبيعة الشعب وفى عاداته وفى تقاليده وفى ماضيه وفى حاضره وفى مفهومه للحياة ونظرته الى المستقبل وتفكيره ومعتقده ورؤياه للحضارة ، فلاحظ أن القناعة ، والسلبية والرضا بالدون هى أسس النمط الحياتي الذى يعيشه . انه شعب مستكين الى ثلاثة أدواء : الفقر والجهل والاستعمار وهذه الادواء متمكنة منه مسيطرة عليه . هو مغلول وراض بالغل ، انه قانع بتلك العبودية الشاملة الجامعة ، وهل أبغض من العبودية الجماعية ؟! انه يرى واقعه أمرا محتوما ارتضاه له الله وقدره . فالامور بمشيئته تعالى . انه شعب خرافى التفكير اسطورى التصور ماضوى الارادة . هو شعب دفين لا احساس له ولا عاطفة ولا ادراك . هو شعب لا يؤمن بالتاريخ ، انه يرفض التاريخ انه « شعب الاصنام الخشبية أو امساخ القديم » انه شعب ألف « الحياة فى أكناف الدهور الغابرة » (6) ولذا ازدرى الحق واحتقره ، ومات فيه حب الأخذ بالثأر . انه شعب لا خير فيه :

كل قلب حمل الخسف وما مل من ذل الحياة الارذل
كل شعب قد طغت فيه الدما دون أن يثأر للحق الجلي
خله للموت يطويه ... فما خطه غير الفناء الانكل (7)

ان الشاعر قد انتبه الى أن هذا الكائن مريض وهو يجهل أنه مريض . فما الدواء ؟ وما هو موقف أبى القاسم من هذه الحال ؟

هناك حلان :

ـ أن يترك الشعب يعانى داءه فيفني شيئا فشيئا وببطء كمن يعانى السرطان ينهش صاحبه دون شعور منه :

انني ذاهب الى الغاب يا شعبي لأقضى الحياة وحدي بيأسى (8)

---

(6) محمد مزالى : أبو القاسم الشابى الفكر السنة 20 العدد 4 جانفى 1975 ، عدد خاص بأبى القاسم الشابى ـ ص 3

(7) الديوان ص 21

(8) الديوان ص 150 .

ان أبا القاسم قد فقد كل أمل فى شفاء وطنه . انه طبيب كشف عن الداء ولكنه سرعان ما كشف عن جبنه وعدم ايمانه بالحياة لان الحياة تدعوه الى المحاولة وهو يرفض المحاولة ما دام قد فقد الرجاء .

ـ أن يحاول استئصال الداء بتنبيه الشعب الى خطر الداء عليه . ان الشاعر ـ فى هذه الحالة ـ يبقى متذبذبا بين أن يفعل أو لا يفعل : انه يعيش ازمة فى اعنف مظاهرها فهو غريب « وكان هذا الشعور بالغربة عنه قاسيا جدا بالنسبة للشاعر » (9) لقد سعى ان يضع حدا لهذه الأزمنة العنيفة :

ليت لى أن أعيش فى هذه الدنيا سعيدا بوحدتى وانفرادى

لقد اختار :

عيشة للجمال والفن أبغيها بعيدا عن أمتى وبلادى

لا أعنى نفسى بأحزان شعبى فهو حى يعيش عيش الجماد (10)

إن كان الشابى قد قرر حياته الخاصة واختارها فلماذا لم يجرب هذه الحياة ولم يحيها ؟ ثم لماذا يستعمل هذا الحرف « ليت » ؟ ثم ان كان قد اقتنع بوجاهة نظره فلماذا يذكر أحزان « شعبه » ؟ ولماذا ذكر أنه « حى يعيش عيش الجماد » ؟ ثم متى كانت الوحدة تسعد الانسان ؟ (11) ثم ان تخلى أبو القاسم عن شعبه ، وهو كاشف دائه ، وفاحص أمره ، والملتزم بقضيته فمن سيسعى للاخذ بيده ؟ ومن سيعوضه ؟ ومن سيؤدى ـ عوضا عن الشاعر ـ رسالة الحياة ؟ وإن تخلى الشاعر ، أو أى مفكر ، عن وطنه وشعبه ألا يكون ذلك خيانة للتاريخ وكفرا بالدين وجحودا ونكرانا ؟

انه صراع باطنى عنيف .

سيسعى الشابى الى القطيعة والخلوة ، ولكن ذلك لم يحدث ولن يحدث أبدا . واننا اذا نظرنا فى الأشعار التى تبدو فيها الاشارة أو التصريح بالقطيعة

---

(9) محمد مزالى المصدر المذكور ص 4 .

(10) الديوان ص 171 .

(11) يرى جميع المفكرين أن « الانسان مدنى بالطبع » الا ذلك التيار الذى ظهر فى الغرب تيار الرمنطيقيين الذين دعوا الى الزهد فى هذه الخاصية البشرية وقد مثله أعلام فى البلاد الغربية .

فاننا لا نعدم أن نجد الرجل يصارع بين أن ينعزل فعلا وأن يحاول القيام بتأدية الرسالة التى يؤمن بها ٠

ان الشابى سرعان ما يتراجع فى قراره ليعيد النظر فى أمر شعبه ويتفحصه لعله تسرع فى اتخاذ قرار التخلى عنه (12) ٠

2 ـ **الشعب قوة :**

تظهر على شعر الشابى غشاوة من اليأس والانهزامية الا أن الامر ليس كذلك ٠ فهو رغم هذا الظاهر لم يعش بعيدا عن شعبه بعد القطيعة والغربة ٠ انه منذ نعومة اظفاره ـ كان يحاول أن يستكنه طبيعة هذ الشعب ٠ فكان يعايشه ويمارس معه حياته حتى استطاع بتلك المعاناة وتلك المقاساة ـ أن يكتشف جوهر الشعب وماهيته فوجد أن :

أ ـ الشعب روح :

وانه لكذلك وقد رأينا سابقا أن أبا القاسم اشار الى وجود عنصر الحياة فالدم الذى ذكره ينم عن وجود روح تسرى فى هذا الكائن ، انه كائن حى

(12) ان مسالة نفور الشابى من المجتمع مسألة طال فيها الحديث وكثر منذ سنوات ، وقد اتفقت آراء عديدة على أن الشابى شاعر رمانسى ومن خصائص الرمانسية النفور من المجتمع فيقرر عمر فروخ أن «حب الشاعر للطبيعة من كرهه للكفاح فى الحياة ذلك الكره الذى كان نتيجة طبيعية لعجزه عن الكفاح ، غير أن الشابى لما ادرك عجزه هو عن الكفاح أحب أن يرى الآخرين يكافحون فملأ ديوانه بالدعوة الى الكفاح في الحياة. دعا الافراد الى ذلك والجماعات والشعوب ٠٠٠ » المرجع السابق ٠ وعادت الى نفس الموضوع سلمى خضراء الجيوسى فالحت على أنه « كان جبران وشكرى والشابى ... ينفرون نفور الرمانسيين من المجتمع الذى حولهم من عامة الناس ويشعرون بانبتات العلاقة وانسداد الطرق بينهم وبين هذه الكتل البشرية التى تعيش على هامش الحياة ولا تطيق أن ترفع أعينها الى السماء ٠٠٠ » انظر مقال : ابعاد المكان والزمان فى شعر الشابى ـ الفكر عدد خاص بأبى القاسم الشابى السنة 20 عدد 4 جانفى 1977 ص 16 و 17 ـ التعليق رقم 3 ٠

لكنها روح غير طبيعية لان الحياة ـ فى جوهوها ـ تقتضى الحركة والتطور بينما حياة الشعب هذه لا تماشى التاريخ ولا تساير الزمن .

أنت روح غبية تكره النور وتقضى الدهور فى ليل ملس (I3)

فالتاريخ يعنى مسايرة الحياة والاقبال على النور والتاريخ يعنى المعاصرة والمعاصرة تعنى التحول التصاعدى واذا أعرض الكائن الحى عن ذلك التحول ورفضه فانه كائن شبيه بأهل الكهف . فالمسألة فيها تناقض غريب : الشعب له روح ، لكن روحه تكره النور ولذلك فهى غبية اذن كيف يمكن توجيه الروح توجيها وكيف يمكن أن نرفع عنها الغباوة ؟

لقد تقدم الشابى فى تحديد ماهية الشعب تقدما هاما جعله يقر أن :
ب ـ الشعب طفل :

ان رؤية الفرد لمادة يريد ضبطها لا تحصل الا شيئا فشيئا . وهذا هو شأن أبى القاسم مع شعبه . لقد بدأت تتبلور هذه الرؤية وتتضح فالروح الغبية أصبحت تسعى الى الوجود الفعلى والكيان الاجتماعى اذ أن الطفل يرجى منه الخير كل الخير . ان الطفولة مرحلة لابد منها للادراك وهى تعتمد بطبيعتها على المس والجس . والطفل لا يصل الى الحقيقة ، أو لا تتجلى له ، الا بعد التمرس بالواقع والتصادم معه والاقبال عليه والادبار عنه .. فلابد من التجربة .

أنت لا تدرك الحقائق ان طافت حواليك دون مس وجس (I4)

وهذه الحالة التى كان عليها هذا الشعب الطفل خطرة لان الظرف ليس ظرفا عاديا وهذا تعبير صادق عن ادراك الشابى لحقيقة الظرف التاريخى :

أيها الشعب أنت طفل صغير لاعب بالتراب والليل مغس (I5)

فالحالة التى كان عليها هذا الشعب الطفل هى حالة تدعوه الى أن يدرك قبل

(I3) الديوان ص I49

(I4) الديوان ص I50

(I5) الديوان ص I5I

الأوان (16) انه ظرف عصيب عليه أن يشب عليه أن يتكهل عليه أن ينضج قبل الأوان ليواجه مصيره فحياة الشعب فى نظر الشاعر لا يمكن أن تكون حياة الطفل ، حياة لا مبالاة واهمال وسهو عن واقع يجب تغييره فى اسرع الآجال • وهذا يدفعنا الى محاولة تحديد مفهوم الزمن عند أبى القاسم : انه زمن لا يقاس بالساعة الدقاقة انما يقاس بمحتوى ما نحققه . وهذا يدل فى رأيي على مفهوم التاريخ عند الشاعر ، فالتاريخ من عمل الانسان ومن تحقيقه وانجازه ، هو من صنع ارادة الانسان هو الذى يدفعه الى الامام وهو الذى يدحرجه الى الوراء • وهذا المفهوم للتاريخ يتعارض تماما مع ما هو شائع فى مجتمعه من إيمان ـ خاطىء ـ بالقضاء والقدر وأن كل شىء فى الدنيا هو « مكتوب » •

ان الشابى قد أدرك فى هذا المستوى التأملى الفكرى الى معرفة حقيقة الشعب وادرك سبب تخاذله ورفضه لاى حركة • فالى أى شىء يحتاج الشعب ؟

ـ يتبع ـ

احمد الشتيوى

---

(16) لا ننسى أن البلاد التونسية قد عرفت عدة هزات اجتماعية عنيفة وتحديات استعمارية صارخة بين سنتى 1925 و 1930 : فقد ظهرت حركة محمد على الحامى النقابية وماتت فى المهد سنة 1925 ـ انظر كتاب الطاهر الحداد : العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية ، وظهرت حركة تدعو الى تحرير المراة مثلها الطاهر الحداد : *انظر امرأتنا فى الشريعة والمجتمع* ، وقد قتلت هذه المحاولة أيضا فى المهد وما وقع فى تلك السنوات يشير الى خطورة الموقف بل ان الاستعمار احتفل سنة 1930 بمرور قرن على احتلال الجزائر،وتجرأ المسيحيون فعقدوا مؤتمرهم الافخارستى وخرجوا بصلبانهم فى قلب مدينة تونس ••• الى غير ذلك من أمور خطيرة قد تفجرت بسرعة فى سنة 1933 عند انشقاق الحزب الحر الجديد عن القديم • وبذلك بدأ التاريخ يأخذ مجراه •

أسبّح باسم المرارة !

شعر : محمد علي الهاني

أُسَبِّـــحُ بِاسْـــمِ الـمـــرارهْ *
وأقْـذفُ فَـوْقَ شَـوَاطِـئِ صَمْتِـي
شِـرَاعَ لَهِيبٍ بِأظْفَـارِ صَوْتِـي
فَتَطْلُعُ مِـنْ دَرَكَـاتِ الجَحِيمِ مَنَـارَهْ

★ ★ ★

أُسَبِّـــحُ بِأسْـــمِ المَـــرَارَهْ
فَيَأخُذُ شَكْلَ الزَغَارِيدِ جُرْحِـي
وَيَأخُذُ طَعْمَ المَوَاوِيلِ نَوْحِـي
وَيُطْلِقُ نَجْـمُ التَمَنِّي إشَـــارَهْ

★ ★ ★

أُسَبِّـــحُ بِاسْـــمِ المَـــرَارَهْ
وَأغْـدُو عَلَى شَفَـةِ الجُـرْحِ بَسْمَـهْ
وَأحْمِـلُ مِـنْ فَـرَحِ الحُزْنِ نَغْمَـهْ
فَيَشْـدُو دَمِـي ، يَسْتَعِيدُ اخْضِـرَارَهْ

★ ★ ★

أسَبِّـــحُ بِاسْـــمِ المَـــرَارَهْ
وَأحْمِـلُ رَفْضِـي عَلَى الصَّدْرِ شَـارَهْ
وَأكْتُبُ بِالبَرْقِ فَـوْقَ السَّمَاءِ عِبَـارَهْ
فَيَفْتَـرُّ فِي عَـالَمِ المَـوْتِ زَهْرُ الحِجَارَهْ

(*) من ديوان « الجرح المسافر » سيصدر قريبا .

البطل اليساري في الرواية العربية المعاصرة

بقلم : المنصف وناس

(2)

وتحتل (*) الرواية الجزائرية (**) مكانة هامة على مستوى الرواية العربية لانها اضافة الى ثورية وتقدمية المضامين التى تبشر بها ،، تمتاز بقيمة وثائقية تاريخية ،، فقد لخصت أحداث عصرها ونضالاته واستوعبت أفكاره وآراؤه . ولقد تابعت الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية الثورة المسلحة طوال ثمانين عاما منذ الاحتلال الفرنسى للجزائر سنة 1830 حتى قيام الثورة فى نوفمبر 1954 ، خاصة فى ثلاثية محمد ديب التى جسدت معاناة الريف الجزائرى ومرارة آلام الفقر والجوع والاضطهاد القومى والثقافى التى حولت الفلاح المسالم الى مناضل ثورى فى جيش التحرير الشعبى نظرا لصعوبة الحصول على الخبز اليومى بينما المستعمر الاستيطانى يرفل فى الخير والعز ...

الجوع والفقر ، ومشاكل النضال هى أطراف اللوحة الثورية التى يرسمها لنا محمد ديب فى ثلاثيته من خلال حياة الطفل الفقير « عمر » الرمز الحى لاجيال من الاطفال الجزائريين المشردين فى دروب الحياة : « ان لهم (أى الاطفال) أعضاء كأعضاء العنكبوت وهنا ، وان أعينهم لتتقد من الحس . وكثيرون منهم يستجدون الاكف بشراسة أمام الابواب وفى الميادين » (12) ... ففى رواية « الدار الكبيرة » تبرز لنا ملامح بطل ثورى تقدمى ، انه « حميد السراج » الذى اضافة الى اعتناقه أفكار ماركسية يتمتع بوعى نقابى ووعى استراتيجى مكنه من حيازة احترام الجميع فى « دار سبيطار » حتى انه لما يهاجم من طرف البوليس الفرنسى ، تتكفل الدار بحمايته واخفائه رغم التعنيف والضرب الذى لحق الاهل ، ومنهم الاخت التى لم ترضخ للوحشية ،

(*) تابع لما نشر فى مجلة الفكر العدد 4 جانفى 1980 ص 25

(**) لعل الدارس وضع « تجوزا » الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية ضمن الرواية العربية ، ونحن نتساءل هل يصح ذلك أم لا ؟ ونترك للقارىء كل المجال للحكم فى هذه المسألة . (الفكر)

(12) رواية الدار الكبيرة من ثلاثية محمد دب .

فوجوده وسط ريف زاخر بالتناقضات ومجتمع يرزح تحت كلكل الضغط والارهاب ،، وتحليه بترسخ ماركسي واضح ، والتحام جماهيري أصيل ،، كل ذلك يؤهله لان يكون البطل اليساري الاول في تاريخ الرواية العربية لا من الناحية الزمانية ، ولكن من الناحية المضمونية وحسب المواصفات التي وضعناها في اول الدراسة ...

ان « حميد السراج » يمتاز بعمق وعيه وصدق تقييمه وبعد نظره في فهم الاحداث مما يشبه النبوءة ، فينجذب اليه الطفل « عمر » ويصبح محط همومه بل محط هموم الدار كاملة لما يمثله من اصرار وتحد للسلطات الاستعمارية . ولذلك فحميد السراج يعطي أهمية قصوى للوعي النقابي لدى العمال وروح التكتل واللحمة الاجتماعية لدى الفلاحين ، تلك القوى القادرة على العمل والتغيير . انه واحد من أولئك الرجال الذين قالت عنهم امرأة في رواية «الدار الكبيرة» : « في سبيل تبديل حياة الناس الفقراء ، وفي سبيل جعلهم سعداء ، كان يريد أن يقلب العالم ، لو أوتي القدرة على ذلك أو يموت » (13) . ولعل مما يزيد في هيبة حميد السراج أنه صاحب تجربة اجتماعية ومعرفة واسعة اذ قلما : أن لا يرى المرء في جيوب سترته العريضة القديمة الرمانية كتبا ... فهو مشع ومضيء بثقافته وسلوكه وأفكاره مما جعله نقطة استقطاب وتجمع للقوى الحية والمناضلة يقصده الجميع لانهل من تجربته وثقافته على عكس بطل : « قنديل أم هاشم » الذي بحكم تغربه عن وطنه وانعدام تجربته أساء الى فهم الواقع وتوصيل أفكاره ومبادئه ،، ففقد ثقة الجماهير الشعبية ابتداء بأمه وعائلته لانه فاجأهم بأسلوب حياتي قوامه العلم والمعرفة غريب عن مداركهم وأسلوبهم الحياتي الروتيني الممل ،، ولم يعرف مصدر التعفن فيوجه اليه السلاح اللازم . فنضال حميد السراج لا يتوقف عند وعيه الشخصي ، فيتجاوزه الى الفقراء ، وليصبح نورا وقوة تحريكية مكهربة تمس المدينة والريف ويتغلغل في اذهان الاجيال وأولها عمر رمز الجيل الصاعد والمتحفز للنشاط والثورة . فحميد مسالم لا يسيء الى أحد ، ولكنه مؤمن بضرورة العنف لتقويض أسس الاستعمار الاستيطاني وضربه في العمق وضرب البرجوازية الطفيلية الجزائرية المتعاملة معه : « فالنساء أصبحن ينظرن الى حميد نظرتهن الى رجل يملك قوة مجهولة ، وتعاظم الاعتبار الذي يتمتع به حميد في نظرهن تعاظما لا يكاد يتصوره الخيال » (14) ومن ثم يكمن الفرق بين اسماعيل الذي يحمل نظريات فوقية وتصورات نظرية خالية من كل

---

(13) نفس المصدر

(14) نفس المصدر

أساسيات اجتماعية وتعقيدات حقيقة ،، أما حميد السراج الذى على سعة ثقافته وكثرة اطلاعه ، فيستمد تجاربه من ممارسته اليومية وحياته وسط القطاعات الفلاحية والعمالية فى « دار سبيطار » ان عمل الاول عمل كان مثاله الفشل والاندثار ، أما الثانى فقد أنضج أجيالا كاملة قامت على كواهلها ثورة الفاتح من نوفمبر 1954 . فالمؤشر الذى دلل على يساريته نوعية النشاط الذى يقوم به وسط الجماهير التى يتبادل معها التأثر والتأثير حيث انه اجتمع بالعمال الزراعين من كل القرى المجاورة داعيا اياهم الى الثورة المغيرة لاوضاعهم الظالمة فى ظل نظام « الخماسة » (15) وعلاقات الانتاج الاستغلالية - بالاضافة لرفضى أن تكون له حياة خاصة منعزلة عن الناس الآخرين مثل الزواج والعائلة . يقول البطل : « ان العمال الزراعيين أصبحوا لا يستطيعون أن يعيشوا بهذه الاجور الزهيدة التى يتقاضونها ، انهم سيتظاهرون بقوة ؛ يجب أن نتخلص من هذا البؤس » (16)

ولعل فى هذا ما يشير الى ايمان حميد السراج بأهمية العنف الثورى فى فرض شرعية المطالب ، حتى اذا ما استوجب حمل السلاح واقتلاع الحق بالاظافر .

وهكذا انطلقت حملة تسييس الجماهير العمالية وتوعيتها ورصد ثقافتها بعطاءات سياسية تدفع عنها غائلة الجهل والعمى الفكرى ليتحول العامل الزراعى من ركيزة من ركائز الاستعمار الاقتصادى الامبريالى الى طاقة ثورية متقدمة وجندى من جنود الثورة المسلحة ، ثم يطالب العمال والفلاحين بالاضراب عن العمل فى مزارع المستوطنين فيتحقق أول اضراب شامل لهم ويتصادمون مع الشرطة الفرنسيين صداما عنيفا فينضم عمال السكك الحديدية والبلدية ليقوى جانب المضربين ، وهو يرفض رفضا باتا الديماغوجية الفكرية

(15) ان نظام الخماسة métayage اختلف فى أمره فهناك من يرجعه الى نمط الانتاج الآسيوى mode de production asiatique وهناك من يرجعه الى نمط الانتاج الاقطاعى رغم عدم تطابق التشكيلة الاجتماعية مع هذه المقولات ، وهو ينص على أن يعطى السيد أرضه لعمال بسطاء لخدمتها ثم يأخذ منهم ثلاثة أرباع الانتاج فلا يتحصل منها العامل الا على السهم الخامس : انظر كتاب Le maghreb avant le prise d'alger لصاحبه : Yves lacoste وهذه الممارسات شبه الاقطاعية تتواجد خاصة فى المناطق السقوية رغم الصبغة القبلية للمجتمع التونسى التى تنفى صبغة الاستغلال .

(16) رواية الحريق L'incendie لمحمد ديب

والتعالي على العمال واعتماد أساليب المناشير في مجتمع أمي ، فيفضل تجميع الصفوف حوله والوصول الى الاقتناع الجماعي بالتجمعات السرية والكلمة الحرة والمناقشة وأسلوب التحاور ، ولذلك يمارس التحرك على أوسع نطاق جماهيري سواء في القرى والمدن موحدا الصفوف رغم الحسأسيات الموجودة بين هذا وذاك ، وطبيعة اختلاف مصالح أهل المدن والريف .

وبالاضافة الى كل هذا فهو يعلمهم النظام والتزام الهدوء أثناء النقاش حتى تتاح الفرصة أمام الجميع لابداء الرأى والتعبير عن المواقف المختلفة : « فاذا تكلمنا جميعا في آن واحد عجز من في الشرق عن فهم من في الغرب . واستولى الاختلاط والاضطراب على أقوالنا رغم ما نحمله من حسن نية . لذلك لا بد من رئيس يرأس الجلسة اذا كانت الامور التى نريد أن نتناقش فيها تهمنا . فهذا الرئيس هو الذى يسمح بالكلام لمن يطلب الكلام » (17) . وبذلك تحولت كامل حياة حميد السراج الى عطاء متواصل وبحث عن توحيد الصفوف لمقاومة الاعداء وقهرهم ، ولكنه عندما يعتقل ويواجه أساليب التعذيب الوحشية وعنف الزنزانات يكون قد خلف وراءه جيلا كاملا من الوعى النضالى، مصمما على استرداد حقوقه ... ومن وراء المعتقل الصحراوى يواصل حميد السراج تحريض الاجيال من العمال الزراعيين على الثورة ولئن انتهى جسدا وحضورا فقد استمر نضالا واجتماعات واضرابات ومصادمات مع البوليس والجندرمة ، وبذلك كان فعلا البطل الايجابي واليسارى الاول فى الرواية العربية ان الامتداد المضموني والتاريخي وحتى الفني لرواية « الدار الكبيرة » هو رواية الكاتب السورى حنا مينة : «الثلج يأتى من النافذة» والتى تعكس من خلال مسيرة بطلها الحياتية مدى ما يلحق العناصر الثورية وخاصة اليسارية من قهر سياسى وضيم اجتماعى بعبارة : « جون ديوى » نتيجة لانعدام الحريات العامة وكبت ممارسة الحقوق الضرورية ، ونتيجة أيضا لطبيعة مجتمعاتنا الاوتوقراطية المستبدة ــ وتماما كما هو الشأن بالنسبة لحميد السراج ، فان الشاب فياض ــ بطل الرواية ــ بحكم انتماءاته السياسية واعتناقه للفكر الاشتراكى ، عانى ألوانا من التشريد والنفى والتجويع والسفر من بلد الى بلد بحثا عن المناخ السياسى الملائم لتحركاته المكثفة ودعوته السياسية .

فبعد سيطرة الفاشية على أصرعة الحكم وانتصار الاستبداد يصبح عمل العناصر الوطنية مشلولا مهددا بالملاحقة فيضطر فياض للسفر الى لبنان وبالضبط الى صديقه « خليل » ، وهو يحمل أحلامه فى توفر الوضعية الملائمة لنشاطه ،

(17) نفس المصدر السابق (انظر مجلة أقلام العراقية آذار 77 دراسة لمحمد أحمد عطية حول الرواية الجزائرية باللغة الفرنسية)

ويكتشف فى لبنان انه وقع فى مجرد وهم فارغ اذ ان الحرية كلمة ضبابية ، وزائفة لا وجود لها ، ومجرد شعار يتلهى بعضهم برفعه وترديده :

فيسأل خليل :

ــ كيف الحال هنا ، فى لبنان ؟

ــ من ناحية اللاجئين أمثالك صعبة

ــ يلاحقونهم ؟؟

ــ بشدة

ــ ولماذا ؟

هكذا لا يريدونهم ... أحسب أن هناك ضغطا بشأنهم (18)

ومن هذا المقطع الحوارى نستشف تساوى أجزاء الوطن العربى فى دوس الحرية وانتهاك حرماتها والكفر بالكرامة الانسانية . فالمعاناة واحدة ، والجرح واحد هنا وهناك . فاذا ما كان هروب فياض هروبا اضطراريا ، فانه كان السبيل الوحيدة لمواصلة المسيرة النضالية ، ولكنه يواجه الحبس حتى فى المنفى الاختيارى يقول له خليل :

ــ وطن نفسك على ما أنت فيه ــ انس الماضى قليلا ... لا تقل كنت وكنت ... الذكريات الخائرة تزيدك سوءا ،، ان طبيعته كمناضل سريع الحركة وكثير النشاط ومتواجد على كامل الاصعدة بين الفئات المثقفة جعلته يضجر من جو الحذر والتعامل المتخوف ويتجح فى الحصول على عمل باحدى المطاعم وهو الشاب الثورى المثقف والمدرس الناجح الا أن ملاحقة أعوان الامن له تجعل كل نواياه تتهدم ومشاريعه تتهاوى كقصور الهواء ، فيبتلعه الاختفاء والملل ، ومع ذلك لا يتطرق الى قناعاته الايديولوجية أدنى شك حيث تنتفى منه كل مواصفات الفردية والاحلام الشخصية تماما مثل البطل « حميد السراج » .

ان الخلاف الذى حدث بينه وبين خليل العامل الواعى ناتج عن مفارقة تكتيكية لا غير حيث يجمعهما توحد المنطلق الايديولوجى . ان طبيعته كمثقف وكاتب لا تمنعه من ممارسة شتى المهن ، ومعرفة مختلف الاجواء العمالية ، فيشتغل فى ورشة صغيرة لصنع المسامير مع « أبى ركرز » ليقضى لينته فى فراش من القش ولحاف من الخيش ، ولكنه مع ذلك يظل الوطن الرابض خلف الحدود همه الوحيد ، مرسوما فى جبهته ووجدانه ، لا يشغله عنه شاغل ، فلاجله شرد وطورد وعذب كما فعل حميد السراج حين بدأ نضاله السياسى فقد أسقط من حياته كل ما هو فردى . انهما ضرب من الرجال تساوى

---

(18) رواية الثلج يأتى من النافذة لحنامينة ص 65

حياتهما وطنا وقضية لا تلينهما ظروف القهر السياسي والممارسات الفاشية بقدر ما تشحذ فيهما هم الثورة والنضال .

وهكذا يلتقي رجلان على صعيد البناء هدفهما تحرير الانسان من الضغط ووسيلتهما العنف والصراع . ويوقف فياض نظرا لنشاطاته وتحركاته ،، وبعد سراحه تكون مسافة كاملة قد قطعت في تقريب خلاص الوطن . وهناك على الجبل حيث البرد اللاذع يكتشف فياض أن الدفء هو دفء الوطن لا غير، وأنه كان مخطئا حين فر من وطنه لان النضال الحقيقي لا ينطلق الا من الارض التي شردتنا وكانت السبب في نفينا .

فالقيمة المعنوية لهذه الرواية هي أنها أقنعت البطل وأقنعتنا من ورائه بأهمية النضال واكتساب التجربة التي تزيدنا وعيا وايمانا بالقضية التي نناضل من أجلها .

ولئن بدت في الروايات المتقدمة صورة البطل اليساري باهتة تشمل بعض نواحيها تعليمات ضبابية ، فانه في رواية « الايام الطويلة » لعبد الامير معلة يتحول البطل من شخص واحد يحمل وعيا وتنظيرا سياسيا الى جيل كامل توحد بينه قناعات مشتركة وأهداف مصيرية لصنع الحياة الفضلى وتغيير سحنة المجتمع . ان هذا الجيل من الشباب المثقف والمسيس ملتزم كامل الالتزام بمسيرة النضال رافض كامل الرفض للانتهاكات التي تقع باسم الثورية والتقدمية ، وباختصار ، فهو الجيل الذي صنعته وحنكته الظروف التي عرفت بغطرستها وظلمها ، فهو جيل مؤطر تأطيرا أيديولوجيا واضحا ومتجانسا ، معتقد في صحة المبادىء التي يدافع عنها الى حد الاستشهاد والموت ، بالاضافة الى انضوائه تحت راية تنظيم سياسي يوجه دفة النضال وكيفية العمل الثوري على عكس نماذج الابطال التي رأيناها آنفا والتي يكون فيها التحرك التغييري فرديا والمجهود المبذول فرديا ، الامر الذي يعرض مجهود البطل مهما تكن صلابته الى الفشل والانتكاس ، لان المجهود الفردي الى التأكيد على أهمية التكاتف الجماعي له ما يبرره داخل منظومة التفكير الانساني حيث ان فكرة تأليه الفرد واعلائه فوق الجميع اختفت أو تكاد تكون انحسرت أمام المد الالتحامي الجماهيري والتعانق البشري ، أضف الى ذلك أن طبيعة العصر لم تعد تسمح بظهور فكرة : « السوبرمان » Superman القادر على صنع المستحيل بنفسه ، لان هذه الفكرة العنصرية أفرزتها أمة عانت طويلا من الضيم والحيف فتاقت يوما ما الى ارتقاء جبل الشموخ والعظمة، ولا تعدو الفكرة أن تكون أسطورة تعويض un mythe de compensation بتعبير فرويدي .

– يتبع –

المنصف وناس

ثلاث رسائل للخصب والأمطار والمناجم

شعر: كمال قداوين

1 رسالة للخصب :

يَا خِصْبَ السَّهْلِ المِعْطَاءْ !
يَا خَيْرَ الأرْضِ الخِصْبَةِ ! يا جُودا ونَمَاءْ
ما ضَرَّكِ لو أصْبَحْتِ جفَافا للشُعَرَاءْ ؟!
ما ضَرَّكِ لَوْ عَمَّرَ فيكِ القَحْطُ سِنينا لِمَلاَيينِ الفُقَرَاءْ ؟!
ما ضَرَّ رُبُوعَكِ لَوْ عَادَتْ تَسْكُنُهَا صَاهبَّاءْ ؟!
فبِرغْمِ لذيذِ فَوَاكِهِنَا ،
وَبِرغْمِ ثَرَاءِ مَرَابِعِنَا ،
سِيَّانَ لَدَيْنَا أنْ نَحْرِثَ فِي جَبَلٍ وَعْرٍ ،
فِي أرْضٍ بُورٍ ،
فِي سَهْلٍ رَطْبٍ ،
فِي عُمْقِ الصَّحْرَاءْ !
سِيَّانَ لَدَيْنَا أنْ نَحْفِرَ بِئْرا فِي وَادٍ قَفْرٍ ،
فِي نَجْدٍ خِصْبٍ ،
فِي حَقْلٍ جَدْبٍ ،
فِي عُمْقِ سِبَاخٍ جَرْدَاءْ !
ما دَامَ الزَرْعُ يُصَادِرُهُ سِرّا أصْحَابُ الخُطَبِ الجَوْفَاءْ !
وَاللَّعْلَعَةِ الدَّامِغَةِ العَرْجَاءْ !..

2 رسالة للأمطار :

تُريدينَ مِنّي أصيحُ «انزلي حيثُ شئتِ ، خراجُكِ لي ،»
وَطيبُ فَواكِهِكِ النَّيِّرَهْ ،
سَيَضْمَخُ لي سَلَّتي كَيْ تَحُلَّ بِداري ،
وَتُمْسي عَشاءَ صِغاري ...
تُريدينَ أهتِفُ ، أدْعو ، وأضْرَعُ لله ، يمطر غيثا
لكَيْ يَنْعَمَ الجاحِدُونَ بِحُلْوِ مَذاقِهِ ،
كَيْ يَرْتَوي الشَّارِبُونَ بِنَكْهَةِ رِيحِهِ !
تُريدينَ أدْعُو ، أمَسِّحُ طَرْفي
وَأجْزي القَرابينَ عِنْدَ المَساءْ ،
وَأبْقى أنا في نِهايَةِ هَذا المَطافْ ،
أعاني الأوارَ بِأزْمِنَةِ القَحْطِ ...
حَلْقي يَجِفُّ ،
تَظَلُّ تَواشيحُ قَلْبي مُكَدَّسَةً بِالظَّمَأ ،
تَتَكَوَّرُ سُخْطًا ، شُواظًا ، عِداءً ، دِماءً
تَفُورُ عَلى دَفَّتَيْهِ ،
وَأبْقى أنا اليَوْمَ مِثْلَ الخُيُولِ ، تُقَطِّعُ كُلَّ الأعِنَّةِ ،
تَنْهَشُ كُلَّ القُيُودِ بِساعِ الرَّحيلِ لِتَبْحَثَ عَنْ نَبْعَةِ
الماءِ ، عَنْ رَشْحَةِ النَّوْءِ بَيْنَ حُقُولِ الضَّبابْ ،
وَنَسْغِ التُّرابْ !.

3 رسالة للمناجم :

بِأيِّ الفَوانيسِ أدْخُلُ هَذي الدَّواميسَ ، كلّ الفَوانيسِ
تأبى تَكُونُ مَناراتِ غَيٍّ ، مَصابيحَ ظُلْمٍ ،

كُلُّ الفَـوَانِيـسِ أَقْنِعَـةٌ للدُّجَـى ،
يا للرّجَالِ الشدّادِ ، ستَناجيب تلك المغاوِرِ كيفَ يخوضونَ
بالنّأس ... حتّى عِراص الدّواميس تُوشك بالانفجارِ وبالإنهيارِ
وفيها اسْتِفاق الثّرى الغَضّ يَدْوِي ، يُجَمِّعُ ذَرّاتِـهِ
البَائِسَاتِ بِعُمْقِ البَسِيطَـه :
أَنـا مَنْبَعُ النُّورِ مِنْ سَالِفِ العَهْدِ دَوْمـا ،
رِجَـالي صُقُورٌ يُعطّرُهَـا الفَحمُ ، يَمْلُؤهَـا العَزْمُ ،
لا يَرْتَضُونَ التّعَزّي وَزَيْفَ الحقَـائِقِ عِنْدَ الضُّحَـى ،
يَذُمُّـونَ فِيـهِ انْتِحَـارَ الفَضَـائِـلِ ،
موتَ الحَمَائِمِ فِي لَيْلِ سِرْبِ الخَفَافِيشِ ،
زَيْفَ الوُجُـوهِ ...
لِمَنْ تِبْرُ هَـذَا التُّرابِ يَفُـوحُ ؟...
لِمَنْ تُـرْبَةُ الأرْضِ تُسْدِي النَّعِيـمَ ؟
فَـلا كَـانَ مِنْهَـا جَمَـاءَ وَشَحّـا
إِذَا جَنّـت اليَـوْمَ مِنْهَـا المَسَـوَادُ !
أَوْ شَحّـت اليَـوْمَ فِيهَـا الـرّوَافِـدْ !

كمال قداوين

من دراسات الأعداد القادمة

العنكبوت ...

قصة : عائدة عبدالحميد

بحثت عن وجهه بين الوجوه .. هو الوحيد الذى حرك فى داخلى شعور الفة .. نظراته لى انستنى غربتى .. كلماته لم اعتد ان اسمع مثلها .. وانا أتعرف إليه أيقنت باننى محتاجة إليه بقوة ..

★ ★ ★

قبل شهور لم أكن أعرفه .. وكان هو بدوره يجهل من أنا .. وفى يوم سماؤه رمادية وعطره متناثر وقفت أمامه لألقى ببطاقة تعريفى بين يديه ..

لقد واجهته وأنا لا أحمل معى من الاسلحة شيئا .. واجهته معزولة من السلاح .. نظرت اليه فانبهرت .. شعرت بالخجل من نفسى .. لقد بدوت تافهة .. لقد أحسست ساعتها اننى بحاجة الى أن أستمد قوتى من قشورى الخارجية .. بعد صراع داخلى اعترانى ساعة ان رأيته تمكنت من الوقوف على قدمى وواجهته ..

كان الحوار متشعبا .. مثقلا بمشاكل تجعل السامع يتيه فى السراب .. احساس قوى تمكننى بأنى وجدت نفسى .. بدت عيناه جذابتين .. يسكن فيهما سحر من الروعة .. نسيت افكارى القاتمة السواد للحظة فى داخلى تتحرك أفكار غريبة .. تستيقظ مشاعر مسحوقة .. مدمرة يبعث احساسى بالحياة من جديد .. كلمات مضطربة مجنونة تدور فى داخلى ..

سرحت مع افكارى .. « هل أبدو جميلة ؟؟ لماذا لست مثلهن ؟؟ ما الفرق بينى وبين أى فتاة أو امرأة ترغب فى ان تنال اعجاب الآخرين ؟ احسست بانهيار داخلى يستولى على .. تمنيت ان أنظر فى مرآة .. ما بال تصرفى يبدو

عشوائيا ؟؟ لماذا لم أفكر في الذهـاب الى الحـلاقة لأصفف شعـرى ؟؟ لـماذا لم أرتد فستانا أكثر رشاقة واكثر اشراقا ؟؟ لماذا لم اهتم بزينة وجهى ؟؟

بدوت وكأننى فتاة تافهة .. غبية .. لم تتمرس بالحياة بعد .. واستصغرت نفسى .. حقرت تصرفاتى .. وفكرت فى الانسحاب .. كان يتأمل فى وجهى .. وكنت أفكر فى ان اضع حدا لهذا الوضع الغبى .. العـرق يتفصـد من كـل كيانى .. الافكار تتداخل فى رأسى كأن الجميع قد كشفوا عن افكارى حتـى هو .. بدا وكأنه يسخر منى .. يسخر من سذاجتـى .. احـاول ان استجمـع نفسى .. انهض .. ينهض .. ويخرج صوتى ممزقا .. « لا بد لى أ نأذهب .. » ويمدلى يدا ليودعنى . تركته وانا اسرع الخطى ..

فى الشارع كان كل شىء بداخلى لا يكف عن السخرية منى .. منذ لحظات بدوت ساذجة .. اننى مثل كل امراة .. تـذوب تتـلاشى .. كلمـا قـابلت الرجـل الذى يمن عليهـا بالحيـاة .. مسكينـة أنـا .. لقـد وصمت نفسى بالفشل .. عن غير وعي منى .. تسربت يدى الى وجهى .. تتحسسه .. الى شعرى تصلح من وضعه .. لقد تمنيت فى تلك اللحظات .. تمنيت بقـوة ان انظر فى مرآة .. حتى أرى نفسى وانا ابدو امامه على صورتـى تلـك ، فـى قرارة نفسى كنت واثقة من جمال هيئتى .. ورغم ذلك فانا لم أجـد الجـرأة الكافية لاواجه رجلا على تلك القوة وبتلك الروعة دون أن أهيىء نفسى لهذا اللقـاء .

لقد حرك هذا الرجل بداخلى شعور الفة .. كانه أحس بغربتى .. وكاننى عرفته منذ زمن بعيد .. وعـرفت ان لقـائى به كان قـدرى ، كنـت أعلـم جيدا اننى قوية .. وأننى لن أصاب بانهيار مهما كانت قوة الرجل الذى يعترض طريقى .. فى هذا اليوم شعرت باننى محتاجة اليه بقوة .. وعقدت العزم على ان اتعرف اليه أكثر ..

★ ★ ★

انه يختلف كثيرا عن الذين اعرفهم .. لقد ارتحل الى بلدان عديدة وتعرف الى ثقافات كثيرة .. وغربل القيم فنظرته الى الحيـاة لا بد ان تكـون اصـدق وحكمه على الاشياء او لها لا بد ان يكون اوضح ..

معظم الذين حوله يستهجنون تصرفاته .. بصراحة لم أر فى مظهره ولا فى أفكاره زيفا .. انه جرىء .. صحيح .. ويقولون انه حاد الطبع .. ربما .. وهو

قليل الكلام .. كثير الصمت .. ولكن نظراته تقول : انه مشحون بافكار وقيم أوسع بكثير مما اتصور ..

الموضوع ببساطة انى وجدت مكانى الطبيعى الى جانبه ..
مرة واثنا أصافحه استبقى يدى فى يده لبرهة .. أراد أن يقول شيئا .. وأردت أن أقول شيئا .. ولكن الحياء ألجم لسانى ..

تحدثت مرة عنه الى احدى صديقاتى .. صديقة مقربة الى وعزيزة على .. قالت : انه يعيش على الطريقة الاوربية .. لا قيمة للعواطف عنده .. يختال كديك رومى ..

لم يغير ــ ما نسبته اليه ــ رأيى فيه .. الرجل فى نظرى عمق بلا حدود.. وهو موقف قبل ان يكون شيئا آخر .. وصديقتى هذه تبهرها القشور الخارجية .. قالت لى ذات مرة :

« ربما شدتك اليه أناقته » .

عارضتها بشدة : « كلا .. غير صحيح » .

استأنفت تقول : « ولا تنسى أنه حامل دكتوراه » .

أعرف تقييم صديقتى للأشياء .. بكل هدوء أجبتها :

« أعرف ولكن الذى أعلمه أكثر أنه رجل عميق » .

* * *

لقد بحثت طويلا عنه لأجده .. ولكن يبدو انه كمعظم رجالات اليوم يحمل اثقالا من الشهادات ولكنه مثلهم لا يملك هدفا ولا اقتناعا ..

عرفت مبكرا ان قيودا تكبله وانه مسجون وسط تابوت مفاهيم خاطئة للحياة وللاحياء .. توارثها ابا عن جد ، وبقيت راسخة فى ذهنه رغم الاربعين سنة التى عاشها والتى قضى معظمها خارج أرض وطنه يجول بلدان العالم وينهل من ثقافاتها المتشعبة المتعددة ..

حبات الرمال تذكرنى بعبثية كل شيء .. احلامى البكرية تسقط فى بئر لها عمق عينيه ..

افكارى تتدافع .. تتسابق .. اردت ان اقول شيئا .. أن أصرح بشيء .. لماذا لا يكون انسانا ؟؟ لو وضع نفسه موضعى ؟؟ لو كان له مثلى اطفال ؟؟ هل كان ليرمى بهم بعيدا لاجل نفسه ؟؟

حسبته مثقفا وحسبت انه سينظر للامور باكثر واقعية .. وسيقبلني كما انا .. كاملة .. دون ان يطيح بأي جزء من أجزائي ..

وبكيت .. بكيت ليس حزنا على احلامي التي اندثرت ولكن على شيء بداخلي ما زال يهفو الى بيت سعيد ويحلم باسرة اكون ملكتها ومديرة شؤونها .. ما زالت فكرة ان اجلس في بيتي حتى ساعة متأخرة من الليل انتظر عودته بلهفة لاسمع اخباره ولاسمع حكاياته تلح علي ..

وما زال شوقي الى ان اخرج معه ، نجوب الشوارع ، نتحاور في اشياء تخصنا واخرى لا تخصنا ، نجلس الى اصدقاء ، نرشف القهوة ، ندخل الى السنما ، نعرج على المكتبات ، نقتني مجلات وكتبا وجرائد ، ما زال هذا الشوق يشدني الى أن أبدأ من جديد ..

الخواطر تتزاحم في رأسي .. أي حوار معه سيتوه .. سيضيع .. ولكنني قررت مرة واحدة ان ألبي الدعوة واذهب ..

في المطعم جلسنا الى مائدة منزوية .. أخذ يدي بين كفيه وهمس :

« أحبك يا رجاء .. أحبك » .

هزتني كلماته .. انها لم تعد تحرك في داخلي شيئا ..

من سوء حظي اني اكبر سريعا وافهم اكثر كلما كبرت ..

اخذ يدير باصبعي الخاتم الذي اهداني اياه منذ اسبوع ..

« يدك جميلة والخاتم بها .. بضعة اسابيع وتلبسين خاتم الزواج »

يعتصر يدي بين يديه .. انتشلتها منه برفق .. حزن شديد يعتصرني .. لم استطع ان آكل .. كنت ارمقه عن كثب وكأنني اودعه .. لاحظ ما أنا عليه من فتور .. قال وهو يأكل بشهية :

ـ « لماذا لا تأكلين ؟؟ »

قلت : « ليست بي رغبة » .

قال : « لن اقبل منك أي اعتذار .. خطر لي .. اليوم أن أدعوك على الغداء لأشاركك الاكل .. كلي واجلي الريجيم الى شهر العسل » .

كان يتكلم بهدوء وبثقة ودون كلفة .. وكأنه يعرفني منذ سنوات ، تعجبني فيه لهجته الآمرة .. وابتسامته الساخرة .. واكثر من ذلك صراحته رغم انها تكون في احيان كثيرة موجعة وحادة ..

ونحن نغادر قاعة الأكل قال فجأة :

ـ « من الغريب أن أرى علامات الكآبة بادية عليك في يوم مثل هذا »

قلت في حزن : « أريد أن أعود .. ان هناك عيونا تشتاق لرؤتي .. »

قال في استطلاع : « عيون من ؟؟ »

قلت : « ايمان وسلوى » .

قال : « في احيان كثيرة تدهشني افكارك ، انت الآن معي .. ولكنك تعيشين بعواطفك وبمشاعرك وبكل ذرة في كيانك معهما » .

قلت : « انهما تحبانى »

قال : « وانا ايضا أحبك » .

قلت : ـ وكان اتونا من نار قد تفجر في اعماقي ـ :

« قد تكون كلمتك هذه مزيفة .. بلا صدق .. وبلا روح .. لو احببتني فعلا لقبلتني كاملة » .

قال بشيء من الغضب : « الانسان مخلوق اناني .. يعطي ولكن في حدود ، لقد قبلتك انت .. تحديت أهلي واقاربي .. ورفضت كل واحدة رشحتها لي أسرتي .. ولكن أن أقبل طفلتي رجل آخر شيء يفوق طاقتي .. اتركيهما لامك .. ليست نهاية العالم ان تتركيهما ، وممكن جدا ان تعود حضانتهما الى والدهما ، فهو اجدر مني ومنك بهما .. لماذا تهولين الاشياء » .

قلت بسخرية : حسبتك مثقفا » .

قال بضيق : « نحن لا نعيش في عزلة عن الآخرين .. خطواتنا محسوبة ، ثم ـ وكما سبق لي أن ذكرت لك ـ ما تريدينه يفوق طاقتي » .

★ ★ ★

لما عدت الى البيت القيت بجسدي المتعب فوق الفراش وبكيت كما لم أبك من قبل .. فكثيرا ما تكون الرؤيا اثر الدموع اكثر صدقا وأشد اشعاعا .. وعقدت العزم على ان ارضى بنصيبي في الحياة ، ووضعت في حسابي ان المسألة مسألة حظ وان كل شيء يسير حسب تقديرات علوية تريدها السماء لأمر ما .. وانا لم أعد ابنة السادسة عشرة او حتى العشرين لاتشبث به الى درجة أسمح فيها لنفسي بالتخلي عن طفلتي أجمل شيء عانقته زمن الوحدة والصراع ..

ان أحمد لا يشعر بما يعتمل في صدرى .. وهو لم يصبح بعد أبا ليقدر ـ ولو عن بعد ـ هذه العاطفة المتأججة بين ضلوعي ، عاطفة الامومة ..

قال بتصميم : « اختارى بيني .. وبينهما .. انا رجل صريح .. اريد ان أتزوج بامرأة تتفرغ كلية لي .. لا أريد مشاكل .. أريد أن أعرف قرارك قبل نهاية الاسبوع » .

قلت بمرارة وبتحد : « سأختار » .

بعد أسبوع ، حبات الرمال ما زالت بين أصابعي لما طرقت بابه ودخلت .. قفز للقائي متفائلا .. انه مغرور .. مثل بقية الرجال .. عيناه تلمعان بوهج الانتصار .. اقترب مني .. قال هامسا .. مداعبا ..

ـ اصبحت عاقلة

ـ قلت بمرارة : عاقلة جدا ..

قال : « عيناك تطفحان بعواطف عذبة .. كم هما جميلتان عيناك ..! »

قلت : « صحيح .. انها عواطف الام ، تقابلك » .

نظر لي قلقا .. قال : « ما زلت انتظر قرارك » .

قلت : « انت تعرف افكاري منذ ان عرفتني » ..

قال : « افهم من هذا انك قد انسحبت من المعركة .. وفضلت الانزواء »

لذت بالصمت .. شيء ما عطل لساني عن الحركة .. لعلني ما زلت مشدودة اليه ، ولكن شيئا اقوى يشدني الى طفلتي .. خلعت الخاتم من اصبعي بصعوبة وكأنني لا اريد ان اتركه .. القيت به على مكتبه بأسى .. في عينيه يضج سؤال مكتوم .. نظرت اليه دون ان أجيب وخرجت .. في الشارع أخذت نفسا عميقا .. لقد احسست بوزني يخف .. فلقد تحررت من كل ما اثقلت به نفسي .. كأنني كنت في زنزانة وخرجت .. اذذاك واجهت ذاتي بصدق .. كأنني اصبحت اخرى .. فقدت حماسي لاشياء كثيرة كانت تبهرني .. الشهائد لم تعد تعني شيئا بالنسبة لي ، المستوى الثقافي كذلك ، السفرات ، اللقاءات، لسبب بسيط ، انه لم يعد يعني شيئا بالنسبة لي ، الرجل موقف وموقفه مني اتسم بالجبن ..

وخيوط الفجر تتسرب الى غرفتي كنت ما زلت أزيل حبات الرمال المتناثرة على أصابعي وعلى ثيابي .. رحيلي بعيدا عنه سيعيد الى توازني .. سيجدد داخلي .. وسيجعلني استعيد صفاء مشاعري نحو طفلتي .. كنت قد

عاهدت نفسي ذات يوم على ان لا اسمح لليأس والظروف ان تتسرب الى افكاري ، حتى لا انشغل عنهما .. وكدت اثناء هذه المدة وباقتحام احمد حياتي ، كدت ان انساهما ..

وعشت ايام التمزق .. اياما انشطرت فيها وكدت اضيع .. وكادت نفسي تتيه مني .. اعجب لنفسي كيف تغيرت ؟.. يبدو انى ما زلت مسجونة داخل اسوار ذاتي الضيقة .. وما زلت أعيش بافكار تجعل مني مجرد أنثى .. كل همها ان تصبح زوجة فلان .. اين هي جواهر ذاتي ؟؟ واين هي قيمي .؟ كان اشعاعها يجلب لى احترامى لنفسى وتقديرها .. وعالما يموج بالغبطة والارتياح ورثيت لحالي .. كدت فى لحظة من اللحظات ان افقد صوابى واترك ايمان وسلوى لاجل رجل سحرتنى شخصيته القوية وذكاؤه المشع يدعى أحمد ..

ضاقت نظرتي للاشياء حولي ، وحسبت انني بارتباطي به سأنقذ نفسي من مستنقع الملل والعزلة والحرمان .. لقد ركضت بسرعة ولكن ما لبثت ان تراجعت فجأة « فلقد كانت سعادتي وهما كما كان شقائي وهما ايضا ..

منذ شهور تزوجت احدى زميلاتي في العمل وكانت في وضع يشابه وضعي .. تركت طفلها لوالدتها وتزوجت .. وهي اليوم حامل .. وتنتظر مولودا جديدا من زوجها الثاني ، قالت لي شقيقتي بعد ان اعلمتها بالسبب الاصلي الذى لاجله فسخت خطبتي لاحمد :

« لم أعد أفهمك .. أعرف أنك طيبة ولكنني اليوم عرفت انك طيبة الى حد القرف .. انظرى الى فلانة وفلانة وفلانة .. ألسن بأمهات مثلك .. أنت واحدة من اثنتين .. اما مريضة فى حاجة الى العلاج نفسانى ، واما أنك لا تقدرين الاشياء حق قدرها .. انتبهى لنفسك ان مثل احمد لا يجود به الدهر مرتين .. لقد حسدتك لاجله الكثيرات وها انك اليوم تعلنين فسخ خطوبتك منه .. أأنت تعين ما تقولين .؟ في يوم ما ستتزوجين .. في الزواج تجد المرأة سعادتها ..

قلت بهدوء : « سعادتى تنبع من داخلى .. احساسى وانا لجانب طفلتى لا يقدر بثمن ..

قالت بجفوة : « سوف يأتي يوم تعتادينه ويتسرب الملل الى نفسك وتضطرين الى ان تبحثي عن سعادتك خارج سجنك هذا .. الايام تمر .. والعمر يتقدم بنا .. والفرص الحلوة لا تتوفر دوما ..

« انا احبك كما احب ايمان وسلوى .. واريد لك ولهما السعادة .. الى متى ستظلين بلا رجل .!؟ اعرف انك تملئين وقتك بالقراءة وتعطين من نفسك الكثير لعملك ولطفلتيك .. اعلم ذلك ، وأرى دوما البسمة توشح تقاسيم وجهك ، ولكن بالرغم من كل شيء فان الحزن يسكن قرارة نفسك .. يبدو في عينيك وفي لهجتك وفي تصرفاتك واضحا .. جليا .. صارخا .. انك غير راضية عن وضعك .. افتقارك الى الكثير من الاشياء جعل منك امرأة هادئة .. رصينة .. دائمة السرحان .. دائمة الانزواء ، تبحثين في طفلتيك عن التعويض ولكنك لا تجدينه .. وتتعمدين المرح والابتسامة الدائمة ولكن من يعرفك جيدا يرى مدى العذاب الذي ينخر كيانك ..

« انك تبحثين عن شتات نفسك ولكنك لا تجدينه ، ما زلت ممزقة بينه وبينهما .. رغم قرارك النهائي الذي اتخذته ورغم تصميمك على تركه »

صحت في وجهها من غير وعي مني محتجة :

« انت تتوهمين »

ولكني عدت فاعتذرت لها عما بدر مني ..

لماذا الكذب .. لقد تعبت من الكذب على نفسي وعلى الآخرين .. تعبت من ترددي .. وحيرتي .. لأواجه المشكلة بكل وضوح .. بلا لف ولا دوران ..

نظرت في عينيها وقلت :

« لقد تعبت .. أريد أن أرتاح » .

قالت : « أما زلت تحبينه ؟ »

قلت : « سيضيع الحب مع الايام » .

قالت : « تنظرين دوما للأشياء من وجهها البشع .. »

قلت لها : « لقد انزاح كل شيء .. ولقد اخترت .. وقضى الامر » .

قالت : « أأنت سعيدة ؟؟ »

قلت : « لست أدري ولكن الذي أدريه انني قد نجوت بنفسي .. وتجاوزت ذاتي » .

قالت بحزن : « انت تغيظيننى بكلامك هذا .. تضحين به لأجل شيء اسمه قيـم ؟؟ »

قلت : « أنا لم أضح .. لقد خيرت فاخترت »

قالت : « وحبك له ؟؟ »

قلت : « ربما تركته لاننى لم أحبه أبدا » .

وصرخت وكأنها تستغيث : « لن أصدق .. لن أصدق » .

★ ★ ★

تنحدر رغما عنى دموعى .. مشاعر لا أفهم لها كنها تعتمل فى صـدرى .. اختلطت على رغباتى .. وتداخلت .. لم أعد أفهم منها شيئا ..

وأنا استقبل أول فجر بعد تركى لاحمد احسست بعتمة تتكاثف حولـى .. واحسست بأشياء كثيرة تتيـه منـى .. تتحطـم فى داخلـى .. واحسست بالشيخوخة تدب الى قبل أوانها .. احساس لم يسبق لى ان شعرت به قبل اليـوم ..

وعادت خيوط العنكبوت تزحف الى من جديد لتنسج حولى سورا من الملل والرتابة .. وعدت أفكر فى أحمد .. وأحن الى نظرة رقيقة من عينيهُ .. وعدت اسأل نفسى :

« هل انَ ما فعلته كان غلطا ؟؟

ولكن مجرد تشريحى لهذا القرار يجعلنى على يقين من سلامة تصرفى .. فلقد استمددت قرارى هذا من نبع الصدق والايمان بداخلى » .

عائدة عبد الحميد

الساحلين فى ١٥ / ١١ / 79

سفينة الحكمة

شعر : عبدالله الزناد

II

العلم

يا أيها الناس من للعلم ينشره ‌ فيصبح النشء بالعرفان خلاقا
ترقى البلاد يعم الخير أمتنا ‌ نكون من أسعد الساعين أخلاقا

• • •

العقل

المرء بالعقل دراك لغايات ‌ فلا تضيق به دنيا الضلالات
بالعقل يفسح فى الدنيا الطريق له ‌ ويبلغ القصد موفور الكرامات

• • •

الحق والباطل

لئن لزمت طريق الحق تسكله ‌ ولو بدا الضر اذ تلقاه مبتسما
خير وأولى اذا ما كنت مدكرا ‌ من باطل كان فيه اليسر مرتسما

• • •

يا رب

ارفع بعينيك فى أوج السماء وقل ‌ (يا رب) فهو الذى ترجو لبلواكا
وهو العليم وما فى الناس مقتدر ‌ فالناس فى غفلة والله يرعاكا

• • •

لا تصحب الاحمق

ان كنت تطلب انسانا تصاحبه ‌ اياك من أحمق خال من العقل
يريد نفعك فى نصح يقدمه ‌ فيحصل الضر مما فيه من جهل

• • •

البخيل

لا يصحب الحر ذا بخل وتقتير ‌ فالحزم فى بعده ما فيه من خير
يحتاج صاحبه يوما الى صلة ‌ فلا يرى منه الا البطء فى السير

حول تاريخ مدينة منزل تميم

بقلم: جلول عزونة

ونرجع الآن ، بعد هذه الجولة الطويلة والضرورية فى الآن نفسه حتى نفهم تطور الامور ونضعها فى اطارها الى الوطن القبلى والى منزل تميم والى خلاوى سيدى سالم . والتى صحب ظهورها ظهور تلك الصناعة الحجرية البركانيـة التى تحدثنا عنها والتى ظهرت بكل من الشمال الافريقى وجزر وسط البحـر الابيض المتوسط . والتى نجد مثيلا لها بالضبط (خلاوى) بكل تلك الاماكن . وقد نحتت فى الاراضى التل وفى الصخور مثل خلاوى او حـوانت بانتاليكـا بصقلية وكانت تصحب عادة هذه المقابر صناعة فخارية متطورة ذات اشكـال هندسية متميزة بقيت حية الى الآن فى بعض المناطق .

فهذه الخلاوى اذن (13) تمثل اكبر عدد من آثار احتلال انسـان مـا قبـل التاريخ بشمال افريقيا ، وهى بيوت مكعبة محفورة فى الصخور .. فى سفح الصخور ونحن نرى منها أبوابها المربعة . وأهالى البلاد يسمون تلك البيوت خلاوى (من الخلوة) ، او حوانت نظرا لشبهها بدكاكين التجار فى أسـواق المـدن (14) .

وقد اعطانا كثير من الكتاب وصف تلك الخلاوى وكلها على نمط واحد ، بيوت صغيرة مكعبة مقاييسها ما بين متر ونصف ومترين والاختلاف الوحيـد يكون فى النقش والزينة ، وهذه الخلاوى كلها تظهر حول بابها الخارجى اطارا مستطيلا واضحا ليحوى كما ينبغى الحجرة التى تسد « الخلوية »

ترى لأى هدف وضعت هذه الحجرات ؟

(*) تابع لما نشر فى مجلة الفكر العدد 4 جانفى 1980 س 25

(13) نحن نتوجه هنا الى ادارة الآثار والى بلدية منزل تميم حتى تهتم بهذه الخلاوى وتدرسها وتبوبها وتفتحها لزيارة العموم وذلك بالقيام بالدعاية الكافية والمنظمة حتى يستفيد النشء وتستفيد المنطقة سياحيا وفكريا .

(14) نحن نتبع هنا وفيما يلى ما جاء فى كتاب ف. بونيار المشار اليه سابقا.

لو سألت أحد المواطنين لأجابك بأنها ربما كانت تحوى الكنوز أو القموح أو لعلها كانت ملجأ للمساكين ؟ ولكنه لا يخطر على باله أبدا أنها يمكن أن تكون قبورا . والحقيقة أننا لم نتعود أن نرى قبورا بهذا الشكل . والرجل المتوسط الطول لا يستطيع اغلب الاحيان ان يتمدد مستويا وسط هذه البيوت . ثم اننا لم نعثر فى بعض مئات البيوت المعروفة بتونس ولو على عظم بشرى واحد ولا على اى أثاث أموات (15) . ومما يزيد فى الدهشة أن على بعض تلك البيوت تظهر علامات تدل على انه سكن من قبل بعض الزوايا المسودة بالدخان ثم بعض العلامات تدل على ان تلك البيوت كانت تغلق من الداخل . ولكن هذه العلامات حديثة أغلب الظن ولعل هذه البيوت استعملت فى بعض الازمنة كملجا مؤقت لبعض الاحياء .

فمنذ ان اكتشف « أوسى » فى صقلية بعض هذه القبور غير المهتوكة ، لم يعد فى الامكان الشك فى القصد الذى وضعت له بادىء الامر فهذه البيوت المحطوطة وسط الصخور هى قبور حقا . ونجد منها نماذج فى كثير من بلدان البحر الابيض المتوسط من أرمينيا الى الجزائر . ولكن بيوت تونس متواضعة ونماذجها لم تتطور (16) ولكن بعض الصفات مشتركة لكل هذه البيوت : الشكل المربع للمدخل مع اطار لوضع حجرة الغلق ، ثم ايضا الابواب الموجودة أغلب الاحيان فى سفوح صخور يصعب الوصول اليها .

ويظهر انه من المنطق ان الرجال الذين حفروا هذه القبور فى بلدان البحر الابيض المتوسط ينتسبون لنفس الاتجاه الذى **ظهر فى الشرق ثم امتد نحو الغرب .**

وهذه القبور اذن ليست بونيقية كما زعمه البعض .. وقد دلت الاكتشافات فى اليونان وصقلية وقبرص ان أثاث هذه القبور يرجع الى عصر النحاس او البرنز . والطرق المتازة فى الحفر التى تظهر فى كل الحجرات وحتى فى ابسطها هنا فى تونس وفى منزل تميم تدل على ان العامل استعمل آلة معدنية ولعلها تشبه مقص قاطعى الاشجار ، عندنا ، وآثار ضربات تلك الآلة

---

(15) ولكنه عثر على عظام أموات واثاث بصقلية فى خلاوى لم تفتح من قبل .
(16) بخلاوى منزل تميم مدارج منظمة متطورة كثيرا ولعلها اضافات متأخرة جدا عند سكنها واستعمالها فى القرون الاخيرة !؟

تظهر بكل وضوح على حيطان تلك البيوت وخصوصا على جنبات البيوت غير التامة .

وهذه الخلاوى نعثر عليها فى **كامل بلاد البربر** ولكن كثرتها تختلف حسب الجهات ويظهر ان طبيعة الارض الجيولوجية كانت عاملا أساسيا فى هذا التوزيع فهذه البيوت حفرت فى « الكلكار » وال « ثمرى » **وهما نوعان من** الاحجار القوية .

والخلاوى تكثر قرب الاراضى الفلاحية ، **وهذا القرب** يعتبر **قاعدة ضرورية** اذ لا توجد خلاوى الا حذو الاراضى الصالحة للزراعة . وهذه القاعدة دليل على أن حافرى هذه البيوت كانوا **مزارعين** . وليس يستبعد ان هذه الخلاوى قد بنيت قرب أماكن سكنى الاحياء لاننا نجدها فى أغلب الاحيان قرب عين أو جوار بلدة كانت مسكونة فيما مضى أو هى مسكونة الآن (مثل حى الازدهار بمنزل تميم الآن ـ الخربة سابقا) .

لقد اختار بناؤو هذه البيوت أماكن البناء وذلك استجابة لضرورة دفاعية وهذه الضرورة هى التى جعلتهم **يستقرون قرب الغابات** (**منطقة منزل تميم** كانت غابة الى أوائل القرن العشرين) . ألم تكن الغابات دائما **ملجأ للجماعات** الضعيفة ؟ ان الجهات التى تكثر فيها الخلاوى تمتاز بشيئين : **فهى فى الآن** نفسه **ملجأ وأرض معيشة** .

وهكذا اذا اعتبرنا ان هذه القبور الصخرية لم تتطور كثيرا فى تونس واننا نجدها خصوصا فى جهات صعبة المنال نسبيا وهنا فى حالة منزل تميم ، عزلة الغابة ، يمكن ان نقول ان حافرى هذه البيوت **سكان قد انعزلوا بكره عن غيرهم أمام هجرات أخرى** .

واننا نجد شيئا آخر مخالفا للحوانيت وهى تلك القبور العملاقة المسماة بـ « الدلمان » أو « المنهير » وهى موجودة بمنطقة النفيضة ؟ ترى كيف نفسر هذا الاختلاف ؟

وهناك افتراض وهو ان كل شيء يسمح لنا بالاعتقاد **ان هناك هجرتان** مختلفتان وصلتا تونس من جهتين مختلفتين **واحتلت كل منهما جهات مختلفة**، أتى حافرو الخلاوى بطريق البحر ومحاذاة للشاطىء وأتى بانئو الدلمان من أوربا عن طريق مضيق جبل طارق ووصلوا تونس متبعين **الجهات العالية** **واستقروا بالوسط** .

وهذه النتيجة وهى **ازدواجية أصل سكان تونس منذ ما قبل التاريخ** التى وصلنا اليها تتفق مع الافكار التى يقدمها عادة مؤرخو عصر ما قبل التاريخ وعلماء الآثار من ان هناك ازدواج فى أصل سكان شمال افريقيا .

ولنحاول الآن بايجاز تخيل نوع حياة هؤلاء الذين نحتوا الخلاوى القبور .

كانوا يقطنون الكهوف أو الخيام ويعيشون من جمع الخيرات من الغابات (عروق أشجار ، ثمار وببوش) ومن الصيد ، وكانت الغابات بمنطقتنا تحوى الاسود والفهود ووحيد القرن (الكركدن) والفيل والبقر الوحشى والدب . وقد انقرضت هذه الحيونات الآن تماما (17)

وقد تطور « البربر » قبيل قدوم الفينيقيين وبدأوا يعاطى فلاحة متواضعة بدائية مع رعى بعض المواشى الآهلة . وكانوا يسكنون قرى محمية طبيعيا (18) ثم اتقنوا بعد مقدم الفينيقيين نسج القماش وتذويب المعادن . وكانت لهم لغاتهم الخاصة ؛ وفى خصوص معتقداتهم فقد كانوا يعبدون العيون والكهوف والاحجار والاشجار التى يظنونها مساكن الجن الاخيار .

وقد اكتسب برابرة الشواطىء فى احتكاكاتهم المتعددة نصيبا من الوعى والحضارة أكثر من اخوانهم سكان وسط البلاد .

وكان البرابرة يختارون قراهم قرب عين أو بئر صالحة للشراب أو قرب نهر جار اسغل الهضبة المسكونة .. ومنطقة منزل تميم كانت اذن عامرة بالبرابرة السكان الأصليين منذ غابر الازمان وعلى أقل تقدير منذ سنوات 1500 سنة قبل الميلاد اى منذ ثلاثة آلاف و 500 عام .. ونحن نتفق مع عبد الرحمان عبد اللطيف فى قوله : « نستدل (على وجود البرابرة منذ القديم بجهة منزل تميم) بكثرة الاماكن التى تحمل اسماء بربرية الاصل

---

(17) انظر كتاب م. روفانيون وأ. بلفران : **التاريخ المختصر لتونس** (بالفرنسية) طبعة تونس 1951 .

(18) هذه القرى الحصينة تقع فوق ربى حجرية غالب الاحيان ، فى أماكن مرتفعة وعرة تكون ملاجىء لهم عند الخطر تساعدهم فى الدفاع عن أنفسهم عند الهجوم عليهم .

وتبتدىء غالبا بالتاء مع الالف (تا) التى هى أداة التعريف فى اللغة البربرية بمعنى (ال) فى العربية ... والاسماء البربرية فى هذه المنطقة هى : تافخسيت (اسم هنشير الآن) وتافلون (اسم قرية الآن) أو هو اسم قبيلة بربرية وتازغران بمعنى الحمراء (اسم قرية الآن) وتامزرات (اسم هنشير الآن) أو هو اسم قبيلة . » (19)

ويؤكد هذا قول أميل فيولار فى كتابه بالفرنسية : **تونس الشمالية** (1906) من ان منزل تميم قد وقع تشييدها « **فى موقع بلدة أثرية عتيقة** » .

وذكر لى الاب البشير النوالى ان بالخربة كان الى زمن غير بعيد شكل قوس نصر تداعى فى الاعوام الاخيرة وهدم . وذكر لى كذلك ان آثار برج دفاعى قد كانت ظاهرة منذ زمن غير بعيد بأحواز منزل تميم بمنزل يحيى (او لحية ؟) وكذلك ما يزال يلاحظ من آثار الغابرين ـ هنشير عرق ساس ؟!

وهذا يحملنا الى تاريخ منطقتنا زمن الحضور البونيقي :

(3) منزل تميم فى العهد البونيقى (الفينيقى ـ القرطاجنى) 814 ـ 146 ق. م.

ان المعلومات التى لدينا حول هذه الفترة معلومات جزئية وغير كافية أغلب الاوقات رغم خطورتها الكبيرة لفهم واقع المنطقة الحضرى والريفى **الآن** ، **لأن** مظاهر كثيرة من الحياة اليومية الآن وطبيعة المنطقة الاقتصادية **اليوم لا يمكن** ان تفهم كما ينبغى دون دراسة ذلك التراث الذى احتفظ به السكان .

وان بقايا آثار رومانية وبونيقية ! بالوطن القبلى وبمنطقة منزل تميم وبقاء المدن والقرى القديمة واعادة احيائها من طرف العرب والاندلسيين وغيرهم ، وتوارد عديد الهجرات السكانية على المنطقة يفسر كل هذا بموقع الوطن القبلى ومنطقتنا الستراتيجية ما بين حوض البحر الابيض المتوسط الغربى والشرقى ، ما بين افريقيا وأوربا على بعد 140 كم من صقلية ، وكذلك بقرب منطقتنا من العاصمة القديمة قرطاج .

ولكن ، وكما قلنا فان الوثائق التى لدينا قليلة ولا تسمح الا باعطاء فكرة مقتضبة عن ماضى منطقتنا .

(19) ما بين قوسين هو من اضافتنا .

هناك المؤلفون القدامى الذين تركوا لنا معلومات عن هذه الفترة تؤكد ان العهد البونيقى قد عرف تطورا كبيرا فى الوطن القبلى من احياء للأراضى الفلاحية ومن تطور عمرانى للقرى والمدن . وقد اكدت الحفريات التى اجريت بقرية كركوان هذه المعلومات وكان ان جلب هذا الازدهار طمع الغزاة الصقليين والرومان .

لقد اعطانا مؤرخ حرب أقاتوكل ضد قرطاج أى ديودور الصقلى وصفا لشبه جزيرة الراس الطيب ، عند نزول الغازى قرب الهوارية فى سنة 311 قبل المسيح ، وهذا الوصف دليل قاطع على الازدهار الاقتصادى للمنطقة زمن الفينيقيين ، يقول فى كتابه الاول :

« ان كل المنطقة التى كان يجب اجتيازها من قليبية الى قرطاج كانت مبثوثة بحدائق ومزروعة أشجارا ، ترويها عيون كثيرة وقنوات عديدة . وكانت هناك مساكن ريفية متقنة البناء ، مدهونة بالجير الابيض تحيط بالطريق وتدل على الازدهار فى كل مكان . وكانت هذه المنازل ملآنة بكل ما سمحت به سلم طويلة للسكان من خزنه . وكانت الارض مزروعة أعنابا وزياتين وبعديد الاشجار المثمرة . وكان السهل يغذى قطعان البقر والاغنام على جانبى الطريق. وكنا نرى مجموعات من الخيول ترعى الاعشاب الكثيرة بجانب السباخ ... »

نعم ان الحفريات الاثرية لم تبرز للوجود الا مدينة واحدة فينيقية بالوطن القبلى وهى كركوان ولكن اذا علمنا تحامل الرومان على قرطاج وعزمهم على هدم وازالة كل آثار الحضارة الحفرية القرطاجنية يجعلنا نفترض ان كركوان ليست من دون ادنى شك المدينة الوحيدة فى تلك الفترة بالوطن القبلى . نعم ، ان الازدهار الفلاحى وربما كذلك الازدهار الصناعى التقليدى الفينيقى بالوطن القبلى ، وعلاقات الجهة التجارية مع العالم اليونانى ، كل ذلك كان ولا شك محوره مجموعة من المدن وبالخصوص مجموعة من المرافىء البحرية (20) .

نحن نعتقد ان جهة منزل تميم قد حوت ولا شك بعض تلك المدن أو احداها على أقل تقدير ، وهذا ما ذهب اليه أيضا جوزيف فايلاند فى كتابه

---

(20) انظر اطروحة دكتوراه الدولة للاستاذ حافظ ستهم **الفلاحة بشبه جزيرة الوطن القبلى** طبع كلية الآداب بتونس 533 صفحة من الحجم الكبير ص 34 وما بعدها .

« **الراس الطيب** » وقد كان هذا المؤلف مراقبا مدنيا بنابل فى سنة 1926 ، فهو يعتقد ان معتمدية منزل تميم تضم ولا شك رفات ثلاث مدن تاريخية قديمة قد عفى الدهر على آثارها .

أول هذه المدن ميقالوبوليس (اى المدينة الكبيرة) ، تلك المدينة التى احتلها أغاتوكل (21) « وعاشت الى ما بعد ذلك بكثير لان أسقف ميقالوبوليس وجد على قائمة أساقفة افريقيا . وقد ذكرها المؤلف اليونانى الشهير ديودور (الصقلى) (22) ويضعها المؤرخ الفرنسى المعروف تيسو فى هذا المكان وذلك فى كتابه : **الجغرافية المقارنة لولاية افريقيا الرومانية** ، وثانى تلك المدن : تينس البيضاء المجاورة للمدينة الاولى ، وثالث مدينة هى مدينة أدين التى كانت فى تنافس مع جارتيها وقد هدمها ريقوليس (23) فى مسيرته على قرطاج . »

---

(21) أغاتوكل : كان دكتاتور بمدينة سرقوزة بصقلية ، ولد سنة 361 ومات سنة 289 قبل الميلاد . من أصل شعبى ، استولى على الحكم بمدينته فى سنة 318 — 317 ، نزل بافريقيا وحرق سفنه وزحف على قرطاج سنة 311 قبل الميلاد بعد ان طيع كل مدن الوطن القبلى ، ورجع فى سنة 307 ولكنه هزم بعد انتصاره فى المرة الاولى وقد اجبر على الفرار والرجوع لبلده وقد أعانه القرطاجنيون ، اعداؤه القدامى ، فيما بعد لتدعيم ملكه ضد ثورات داخلية .

(22) ديودور الصقلى — مؤرخ يونانى ، معاصر قيصر و أوغست ، ولد سنة 90 قبل المسيح ومات آخر القرن الاول قبل المسيح . لقد زار مصر وروما وغير ذلك ، وجمع **مكتبة تاريخية** وصلتنا منها أقسام كثيرة وهى تاريخ عالمى من الزمن الغابر الى احتلال فرنسا من طرف قيصر وقد استعمل كل من سبقه من مؤرخى الرومان واليونان .

(23) ماركوس اتيليوس ريقوليس،جنرال رومانى ، تولى خطة القنصلية سنة 256 قبل الميلاد هزم القرطاجنيين فى موقعة الحنوم البحرية وغيرها برا وطالبوا بالصلح ولكنه اشتد فى شروطه فواصل القرطاجنيون الحرب وهزموه واسروه وقد بعثه القرطاجنيون لبلده روما ليبحث مع مواطنيه تخليص المساجين وشروط السلم على ان يلتزم بشرفه بالرجوع لقرطاج ان فشلت المفاوضات . وقد اقنع بنفسه مواطنيه بعدم قبول شروط قرطاج ورجع حسب الوعد الذى قطعه على نفسه الى قرطاج أين أعدم وذهب مثال اخلاصه لوطنه ووفائه بوعده .

« لقد ماتت تلك المدن الثلاث ذات يوم من أثر جرحها الاخير ، ماتت ولكن ذكر عظمتها ما يزال باقيا يحيا فى ذاكرتنا رغم أننا نجهل الموقع الحقيقى لآثارها .

ان تيسو يضع أدين قرب قرية أم ذويل التى يتفق موقعها تقريبا مع المعلومات المكانية التى ذكرها المؤرخ اليونانى المعروف بوليب (24) فى فصله عن انتصار ريقوليس ، القنصل الرومانى (257 ـ 256 قبل الميلاد) على القرطاجيين .

ونحن نعرف اليوم آثارا قرب قرية آم ذويل بالهنشير المسمى : هنشير الدالية . ولعل ذلك هو موقع مدينة أدين ؟

عنى ان المستشرق الاسبانى جام أولوفيبى آسين يرى ان ميڤالوبوليس تقع مكان مدينة سليمان الآن . وهذا ما يذهب اليه كذلك الاستاذ حافظ ستهم فى أطروحته المذكورة (ص 35) ويضع بعضهم مدينة تينس ولعلها البيضاء التى ذكرها جوزيف فايلاند ؟ قرب الحمامات الآن ما بين مدينتى سياڤو وبتبوت القديمتين ، ويسميها ثينسوت Thinissut ؟ هذا وان الاستاذ حافظ ستهم لم يذكر مصادره حين قام بوضع خريطة الوطن القبلى فى العهد القديم بل ذكر ان الخريطة من وضعه الخاص . وقد وقع حسب اعتقادنا فى خطأين صغيرين اثنين : أولا سنة نزول أڤاتوكل بالقرب من الهوارية ، فقد ذكر سنة 310 قبل الميلاد فى حين ان الحقيقة هى سنة 311 قبل الميلاد (حسب المعجم الكبير فى 11 مجلد لدار لاروس) وذكر ان المؤرخ ديودور الصقلى هو

---

(24) مؤرخ يونانى ، 200 ـ 125 ـ 120 قبل الميلاد ، قام بسفارة الى مصر فى سنة 181 قبل الميلاد ـ قاوم الرومان الذين سيطروا على بلاده ، واقتيد كرهينة الى روما وهناك اتصل بالفلاسفة ذوى النزعة الستوسية ، سافر لاسبانيا ولفرنسا وحضر مع سيبيون ايميليان حصار مدينة قرطاج عند سقوطها سنة 146 قبل الميلاد فى الحرب البونيقية الثالثة ، وعندها ألف كتبه التاريخية وقد وصلنا أغلبها . لقد حاول تفسير توحيد حوض البحر المتوسط تحت الراية الرومانية ، وقد استعان بكل الوثائق الموجودة فى زمنه مع مشاهداته الخاصة وقد استبعد تأثير التدخل الالهى فى حوادث التاريخ وتحدث عن تطور المجتمعات .

تابع لسيده أڤاتوكل ، فى حين ان الشخصين غير معاصرين تماما ففى حين عاش أڤاتوكل فى القرن الرابع والثالث قبل المسيح ، عاش ديودور فى القرن الاول . فقد مات الاول قرنين قبل الثانى !! وأنا أتعجب كيف وقع الاستاذ فى هذا السهو ولعله قد اكتفى بنقل معلوماته دون تثبت نظرا لعدم اختصاصه فى التاريخ وهو الجغرافى المحنك ؛ فهل مع هذا يمكن الاعتماد بدون تردد وتشكك على ما قدمه عن موقع المدن القديمة بالوطن القبلى ؟؟ (25)

ولعل كركوان هى احدى المدن الثلاثة التى هدمها ريقوليس أو أڤاتوكل ؟؟

(4) منزل تميم فى العهد الرومانى والوندالى والبيزنطى

ان فترة الحضور الرومانى معروفة أكثر وذلك بفضل الآثار المتوفرة وبفضل بعض النصوص اللاتينية . لقد كان الرومان يسمون الوطن القبلى : بولشرى برومنتوريوم Pulchri Promontorium ، أى الراس الجميل أو الطيب ، وقد كان حضورهم قوى الاثر فى تلك المناطق . ان الاطلس الاثرى يشير الى وجود 600 موقع آثار مشتتة فوق مساحة الوطن القبلى وذلك بداخل المنطقة وعلى سواحلها .

لقد كانت منطقتنا تنتج كميات كبيرة من القمح ، وكانت هذه الكميات تمول حركة التجارة بمرافىء المنطقة ورومة .

ولقد تواصل ولا شك انتاج الاشجار المثمرة والكروم والزياتين التى وصفها ديودور الصقلى زمن أڤاتوكل . وكانت هذه الثروة عنصر ازدهار مستمر ولا شك !

---

(25) انظر رأى المستشرق الاسبانى آسين بكتاب ميكال دى ابلزا : **دراسات عن الموريسكوس الاندلسيين بتونس** (بالفرنسية) طبعة مدريد 1973 ص 208 .
انظر كذلك المقال الذى ترجمته عن جوزيف ڤايلاند بعنوان : **جهة منزل تميم فى عصور ما قبل المسيح** نشرية **الحياة** عدد 3 ـ ص 6 ـ 7و8

ويلاحظ الاستاذ ستهم (ص 36) من اطروحته المذكورة ان موقع المدن فى العهد الرومانى يشبه موقعها الآن بصفة عامة بخلاف الشواطىء الغربية التى شاهدنا الآن اندثار مدنها القديمة ، ويشير الى دور النقل البحرى الذى كان هو الاساس فى حين لم يكن بالوطن القبلى الا طريقان اثنان : الاول ينطلق من قليبية الى نابل موازيا للشاطىء الشرقى والثانى يجمع بين قرطاج وقربة ..

وكان ولا شك مع هذا يوجد بعض الطرق الريفية الصغرى لنقل المنتوج الفلاحى والسلع المختلفة بين المدن والمرافىء وقد نقص دور البحر والمرافىء عند انتهاء فترة الحضور الرومانى والبيزنطى وانطوى الوطن القبلى على نشاطه الترابى ...

وانى أشير هنا الى ما نشاهد هنا وهناك بمعتمدية منزل تميم من بقايا آثار رومانية وذلك مثل عرصات الجامع القديم بمنزل تميم وقد اعيد استعمالها ولا شك بعد ان ساهمت فى بناء رومانى قديم وكذلك ما نشاهده من حجارة رخامية كبيرة فى مدخل نفس المسجد وعرصات مقام الولى سيدى أحمد بو بكر بقرية ام ذويل ونفس الشىء يمكن أن يقال عن الحائط الذى لا يزال قائما قرب مدفن سيدى جمال الدين على بعد كيلومتر واحد خارج منزل تميم على طريق قليبية فوق ربوة صغيرة تسمح بمراقبة البحر ، وهذا الحائط هو من مخلفات المبانى الرومانية ولا شك وذلك بالنظر الى كبر الحجارة التى بنى بها وكذلك لتنظيم بنائها ..

ويضع الاستاذ حافظ ستهم مدينة أكيلاريا Akilaria بمعتمدية منزل تميم وذلك على شاطىء البحر فى موقع قصر سعد الآن أولبنة ...

جلـول عـزونـه

الاعجاب !

شعر: محمد الشابي

تعال لكي نتفرّجَ في وجهها ويديها ونُلقي السّلام الحميمَ عليْها
وَنفرحَ حتّى ولَوْ زمنا مُوجَزا بالوُقوفِ على قدميْها
وَنشغل أنفُسَنا ليلة وَنهارا ، وَنُبقِي مُنانَا لديْها
وَنأكُل خبْزا ، وَنحنُ نفكّرُ فِي حُسْنِها الجسديّ ، وفي معصَمَيها
وَنجعل من كلّ يوم يمرّ بنَا يَوْمَ عيد ، فنهْفُو إليهاُ
وَننْسَى بأنّا خُلِقْنا لِشَيْءٍ سِوى أنْ نُفَكّرَ في مُقلتيْها ...

* * *

نكادُ من الشّوق نلمسُها ، ونحطّ الأيادي على كتَفِيْها ..
وَنرقُبَها وهي سَاهِمَةٌ كالملاك ، ولاشيْءَ فِي شفتيها
تُراها من الغيْبِ جَاءَتْ ؟ لكيْ نستشِفّ الثيابَ على رُكبتيْها
وبالوهْم نستحْضِرُ الصّدْرَ ، حتّى غرابته ، ونرى الشّمس في راحتيْها
ونبحثُ إنْ هيَ مخطوبةٌ ، ونسألُ عنْها وَعنْ أبويْها ..
فكُلّ الخواطر في ذِهْنِ أيّ المجانين مُمكنةٌ ، ويصحّ اللجوءُ إليْها ..

★ ★ ★

تناقُضنا واضحٌ فِي هَواها ، فيوْما نُصَلّي لدى قدميْها
وَيوْما تَضِيقُ بنا الأرْضُ ، حتّى نُفضّل أنْ نغرس السّيفَ في رِئتيها ..

ضياء براعمنا

شعر : خالد العلانى

يا حبر سئمت نحيبك دهرا فى مرساة النسيان
لنظل هياما سكرى نفنى فى ساحات الاوثان
والنار مؤججة لكن رفضت تبقى بالبركان
وتعالى الناى على الايقاع فشل نشيد الكروان
وضباع الليل تناجينا وتمد يدا للاحسان
د ربفيكا ، نحفظها لسلامتنا عربون التحنان
بشفاه باسمة والشكر لهم وبقلب نشوان
ونسور الرمل أعد لها قفص ذهبى القضبان
والايدى بالحناء مخضبة تلهو بالتيجان
لغروب الشمس عبادتنا وتبرجها للغربان
يا أهل هيامى مالى ؟ قد ضيعت هوامى أو عنوانى
نعتوك بثالثة أو ما كنت الاولى بالبرهان
أنسيت شروق الصبح وما خطت صفحات الايمان
فسموت باعجاز يبنى صرحا أزلى الاركان
وحبلت بكنز لا يفنى يسرى فى صمت الاحزان
وشعاع الصفر يطل علينا يحكى مجد الانسان
يا حبر كفى دمعا فضياء براعمنا فى الميدان

مطالعات

التزيق والحلي عند المرأة في العصر العباسي

تقديم : منجيه منسيه

تاليف زكية عمر العلي

دار الحرية للطباعة بغداد

ط 1 / 1396 / 1976

240 صفحة من الحجم المتوسط

لعل المطلع على كتب الحضارة الاسلامية والدراسات الخاصة يلاحظ على كثرتها وتنوع اهتماماتها اهمالها وان بصورة نسبية ما يتعلق بموضوع الجواهر أو الحلي أو التزين عند المرأة عامة ولذلك فان الكتاب الذى ألفته الكاتبة زكية عمر العلي وأشرفت على طبعه وزارة الاعلام بالجمهورية العراقية يكون بهذا الاعتبار ذا قيمة تجعلنا نبادر بتقديمه لعل القراء يقبلون على قراءته ولعل الباحثين يواصلون دراسة موضوعه .

يبدأ الكتاب بمقدمة ص ص 7 – 10 بينت فيها الكاتبة أهمية الموضوع وخاصة أهمية التزين عند المرأة ثم بينت تخطيطها وطريقة عملها وقد قسمت كتابها الى بابين خصصت الاول منهما ص ص 11 – 90 الى التزيق وقسمته الى سبعة فصول هى على التوالى :

1 ـ المرأة العربية والتزيق .
2 ـ الوشم .
3 ـ تصفيفات الشعر .
4 ـ الخضاب .
5 ـ التكحل والتزجيج والتنمص والفلج .
6 ـ الطيب .
7 ـ تزوق الجوارى .

ولقد اتبعت المؤلفة تخطيطا يكاد يكون واضحا وواحدا بالنسبة لهذه الفصول السبعة وان اختلف اختلافا يسيرا من واحد الى آخر فهى تبدأ بتعريف لغوى أو اصطلاحى عام تعتمد فى ذلك على كتب اللغة أو الادب ثم تتعرض الى أهم وسائل أنواع التزين وأدواته متعرضة الى تطور ذلك النوع من الجاهلية ، فى كثير من الاحيان الى العصر العباسى مشيرة الى وجوده عند أمم من غير العرب وتؤكد على قيمة هذه الانواع عند العرب وغيرهم مستمدة حججها من كتب الادب والتاريخ . ولا تكتفى المؤلفة بالحجج المكتوبة بل هى كثيرا ما تعتمد على صور ورسوم أخذتها فى الجملة عن بعض الكتب الخاصة بفنون الحضارة الاسلامية أو من بعض المتاحف العالمية .

ولعله من المفيد تحليل هذه الفصول فصلا فصلا غير أننا نكتفى بالتعرض الى فصل الطيب ولعل القارىء يعود الى الكتاب كله .

قد بدأت المؤلفة فصل الطيب ص ص 73 ـ 96 ببيان قيمة التطيب وبالتعرض الى من كان يستعمله وكيف كان يستعمل فى الجاهلية والاسلام فتقول مثلا : « وفى الجاهلية ، اعتبر العرب استعمال العطور دليل فرح وفى تركها دليل حزن وغم . لذا فقد كان الاقبال على استعمال العطور شديدا فى أيام الاعياد والافراح وكان العرب يقدمونه كنذر لتطيب المعابد والاصنام » (1) ثم تؤكد خاصة على قول الرسول فتأتى بعدة أحاديث من بينها « ما أحببت من عيش الدنيا الا المطيب والنساء » (2) أو قوله مشيرا الى طرق التطيب « خير طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفى لونه ، وخير طيب النساء ما ظهر لونه وخفى

(1) ص 73 .
(2) ص 74 عن ابن سعد الطبقات ج 1 ـ قسم 2 ص 112 .

ريحه » (3) . وقد ذكرت المؤلفة من اشتهر من النساء ببيع الطيب ثم انتقلت الى تعداد أنواع الطيب وهى : المسك ـ العنبر ـ البان ـ الزبـاد ـ العـود ـ الكافور ـ المحلب ـ النينوفر ـ الصندل ـ الصياح ـ وبعض العطور المـركبة كالغالية والعبير والخلوق والسك وغيرها .

وتذكر المؤلفة بالنسبة لهذه الطيوب ما يبين نوعها ووجودها فى العصـر الجاهلى والاموى والعباسى وطرق الحصول عليها وكيفية استعمالها معتمدة فى ذلك خاصة كتب التاريخ ودواوين الشعراء .

وأما الباب الثانى ص ص 93 ـ 201 فقد خصصته للحلى وضمنته فصـولا هى على التوالى :

1 ـ الحلى عند المرأة العربية

2 ـ مم صنعت الحلى ؟

3 ـ النظم والتيجان والعصائب والزنانير والامشاط

4 ـ الاقراط والشنوف .

5 ـ القلائد الوشاح البريم المناطق الذهبية .

6 ـ الخواتيم والاسورة والدمالج والخلاخيل .

وقد اتبعت الكاتبة فى هذه الفصول نفس التخطيط تقريبا أو يكاد المتبـع فى فصول الباب الاول مؤكدة على عناية العرب بالحلى فى مختلف العصور . وقد قدمت مختلف أنواع الحلى معتمدة فى ذلك ما وجدته من آثار ورسوم من ناحية وما ذكر من أوصاف فى الكتب التاريخية والشعر من ناحية ثانية وقد تعرضت أثناء ذلك الى تأثير الامم الاجنبية في الحضارة العربية في هذا الميدان اذ من المعلوم أن أنواع الحلى قد كثرت وتنوعت لما اتصل العرب بعد الفتوحات الاسلامية وخاصة فى العهد العباسى وقد أثرى اتصالهم باليونان وخـاصـة بالهند والفرس والساسانيين والبيزنطيين حضـارتهم فى ميـادين مختلفـة وخاصة فى هذا الميدان ويظهر ذلك فى أسماء بعض الجواهر والحلى كالياقوت(1) والمرجان (2) وغيرها .

---

(3) ص 74 عن ابن قتيبة : عيون الاخبار ج 1 ـ ص 303 .

(1) ص 106 عن الفيروز ابادى : ج 1 ، ص 167 ، لفظة معربة

(2) ص 107 لفظ معرب عن اليونانية عن زكى : الاحجار الكريمة ص 145

وقد اعتمدت المؤلفة المصادر الادبية وبعض الاشعار لابراز هذه الظاهرة ونكتفي كما فعلنا بالنسبة للباب الاول بالتأكيد على الفصل السادس من هذا الباب ص ص 177 ـ 201 وهو خاص بالخواتيم والاسورة والدماليج والخلاخيل فقد بينت المؤلفة أنواع الخواتيم في العصر الجاهلي والاسلامي مؤكدة خاصة على أنواعها وفصوصها وما ينقش عليها من أسماء أو حكم أو اشعار ثم انتقلت بحديثها عن الاسورة وهي من حلي المعصم المعروضة وبينت مختلف أسمائها وبالتالي أنواعها ومنها الجبارة والوقف والقلب واليارك والملوى هذا وقد تعرضت الى ما عرف من هذه الانواع عبر القرون التي مر بها العرب كما بينت بعض حلي الذراع وهي الدماليج أو المعاضد وأظهرت صعوبة التمييز بين الدماليج من جهة والاسورة من جهة أخرى والملاحظ أن المؤلفة كشأنها في مختلف الفصول قد اعتمدت رسوما وصورا فزادت بذلك ايضاحا مستمدة ذلك من بعض الكتب وبعض المتاحف .

ويلي هذا الباب الثاني والاخير خاتمة ص ص 203 ـ 206 جمعت فيها ما انتهت اليه من نتائج واكتشافات مثل تجميل العيون وفلج الاسنان أو الوشم وتزين الجواري بالكتابة على أطرافهن الى غير ذلك . ثم دعت الى العناية بهذا الجانب من حضارتنا والطريقة لذلك قائلة « ففي حضارتنا ـ ونحن أمام جزء منها له أهمية ـ خير معين يدفع بحاضرنا الى الامام كما دفع بحضارات كثيرة الى التقدم عندما أخذت نصيبا وافرا منها فاستفادت . فلماذا لا نستفيد نحن العرب ، من حضارتنا ، والحال أننا في أمس الحاجة الى كنوزنا المدفونة تحت ركام النسيان والموضوعة في الدهاليز » (1) .

واضافت المؤلفة فهرسا للاشكال التي استعملتها ص ص 207 ـ 219 مبينة رقم الشكل ووصفه والمصدر الذي أخذته منه ثم ختمت دراستها بقائمة مصادر البحث مقسمة اياها الى قسمين :

ـ المصادر العربية ص ص 223 ـ 234 وهي تسعون مصدرا بين قديم وحديث فيها ما هو أدبي كالدواوين الشعرية وكتب الاصفهاني والجاحظ وفيها المعاجم اللغوية كالمخصص لابن سيده ولسان العرب لابن منظور والمعرب من الكلام الاعجمي للجواليقي وفيها الكتب التاريخية كالكامل لابن الاثير والمنتظم لابن الجوزي . وفيها كتب الحديث كصحيح البخاري مثلا كما نجد

---

(1) ص 206 .

فيها الكتب التاريخية كالكامل لابن الاثير والمنتظم لابن الجوزى . وفيها كتب الحديث كصحيح البخارى مثلا كما نجد فيها الكتب الخاصة بالجواهر وفنون الزخرفة ككتاب الجماهر فى معرفة الجواهر للبيرونى وأطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية لمحمد زكى حسن .

أما القسم الثانى من المصادر فهى المصادر الاجنبية وهى 22 مصدرا بين المانية وانقليزية خاصة تهم فى الجملة الفنون الساسانية والبيزنطية وخاصة الاسلامية . ويتضح من هذه المصادر وهى كثيرة ومتنوعة أن موضوع التزيق والحلى عند المرأة العربية موضوع اهتم به الكتاب من مختلف الاختصاصات اهتماما متفاوتا مما جعل الكاتبة كما قالت فى مقدمتها « تجمع الشذرات التاريخية المشتتة » (1) وهذا يدل على ما قامت به الكاتبة من جهود واجب الباحثين فى الحضارة الاسلامية مواصلتها وذلك خاصة بالعناية بتاريخ فنون التزيق من ناحية وضبط طرقه وأدواته وكذلك أنواع الحلى (2) وطرق صنعها واستعمالها . وفى هذه العناية فى نظرنا اهتمام بمظاهر لها قيمتها فى تراثنا الحضارى الاجتماعى . ولا نشك فى أن بعض مظاهر التزيق أو الزينة مما كانت تستعمله المرأة العربية قديما لا يزال مستعملا الى اليوم وفى ذلك ربط بين ماضينا وحاضرنا فى ناحية هامة من نواحى حياتنا الاجتماعية .

منجية منسيه

---

(1) ص 8 .

(2) فى هذا الميدان قمت باشراف الاستاذ (Claude Cahen) بترجمة مخطوط « كتاب كنز التجار فى معرفة الاحجار » للقبجقى الى الفرنسية . وهو كاتب تركى ينتسب الى القرن الثامن ثم قمت ببحث عنوانه « الحلى عند العرب فى القرون الوسطى » .

ندوة القراء

هل ندرس « علم الحياة » ؟

بقلم : ص . د . م

فى إحدى حصص المطالعة اتفق لنا أن درسنا قضية (*) تتعلق بفترة المراهقة للتلميذ ودور المعلم أو الاستاذ فى ملء فراغه بأمور شتى محاولة منه أن يبعده عن كل ما يمكن أن يثير فيه الغريزة الجنسية وانطلاقا من مقال الكاتب لا أذكر اسمه تطرقنا الى المناقشة الجماعية وصات بنا حد طرح سؤال هام وجب درسه بجدية وموضوعية تامة من طرف العام والخاص الا وهو هل ندرس الجنس وهل الاولوية للوالدين أم للمربى ؟ وما هى انعكاسات تعليمه على الأخلاق والدين ؟ وأى الجوانب الاهم لهذه الانعكاسات والنتائج الايجابية أم السلبية ؟

الأمر فى الحقيقة يدعو الى بحث ودراسة عميقة الاصول نبتدئها بما يرتئيه الدين والاخلاق وما تنص عليه الشريعة الاسلامية : فأول ما نلاحظ هو أن القرآن والسنة قد حرصا على تحصيل العلم لمعرفة الضار من النافع فاذا أدرك المتعلم ما يصلح له كذات ويقومه كمجتمع كان قد وقى نفسه والوقاية خير من العلاج بدليل أول ما نزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: [إقرأ] وكذلك شرحه بالتفصيل المدقق لكل ما يمت للعلاقة الجنسية بصلة كالزواج والحيض والنفاس والجنابة وكيفية الخلق من الماء فالنطفة فالمضغة فاللحم فالعظم فالجنين فالانسان . كل ذلك بتفصيل من يحلل أجزاء الانسان ذكرا أو أنثى دون أى شعور بوخز فى الغرائز . وذلك يكتسبه المتعلم بتدرج

(*) ننشر هذه الرسالة نظرا لأهمية الموضوع ونطلب من الآنسة التى أخفت اسمها أن تطلع رئيس التحرير عليه ونحن نلتزم بعدم نشر ذلك ؟.

منطقي تبعا لمكوناته الاجتماعية والفسيولوجية والبسيكولوجية بحيث يبتدىء بالاكتساب من الاسرة قبل المدرسة أو الجامعة ومنذ عهد الطفولة المبكرة قبل عهد المراهقة أو ما بعده فكأن الصبي يتعام الصلاة بداية من سن السادسة وليس بعدها حسب الشريعة الاسلامية . وكما نعلم للصلاة شروط منها الطهارة والطهارة من عوارض تعود الى الجنس أكثر من غيرها ولبيان ذلك يستلزم تعليم ماهية أسباب النجاسة مثلا وبطريقة تربوية تعتمد القدوة الحسنة التي لا تمس بالاخلاق وليس العقاب والتخويف كما يقع ويصدر عن الآباء والأمهات إثر أي سؤال يتقدم به الطفل مع أن السلف قال : « علموا أولادكم فانهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وهو ما يفيد أن الضرورات في الشرع تبيح المحظورات لذا فقد أصبح من الممكن تعليم الجنس كأي علم تحقق نفعه بعد درس تخطيطه ويشترك في تلقينه كل من البيت والمدرسة حسب خط تدريجي نضمن به ارتفاع المستوى الاخلاقي للطفل والشاب معا ، فيكون به واثقا من نفسه متأدبا في سلوكه وحديثه داخل البيت وخارجه ومن المؤسف حقا ما نرى ونسمع حتى ممن لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره أو أقل من الشتائم والالفاظ والسباب المشبعة بعلامات الجنس خاصة في الاماكن العامة وهذا اضافة الى واقع آخر ملموس في حياتنا فتيات وفتيانا عند الاقدام على الزواج فان دور التثقيف الجنسي والسطحي المبتذل يكون للمتزوجين مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن استعمال هذه الطريقة بقوله : [فلا تفعلوا فانما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون ...] والانحراف الاخلاقي بصفة عامة يمكن اصلاحه بالنوعية والارشاد لا بالتغطية والتحذير منه كسر يجب أن يبقى مجهولا الا أنه نسى أن في الانسان غريزة حب الاطلاع قد تؤدي بالطفل أو المراهق عادة الى التماس المعرفة من مصادر غير أمينة إن لم تكن بالتجربة الفعلية وما لشيوع ممارسة العادة السرية الا نتيجة فعلية للجهل والتعصب . ثم إن قيام الحياة العائلية فالاجتماعية حسب نظرية علم النفس تعود أصلا الى الاحساسات والدوافع الجنسية في الانسان على كامل مراحل حياته خاصة منها الطفولية كمرحلة هامة لنموه الجنسي لتأتي بعدها مرحلة أهم وأخطر إذ لها تأثيرات نفسانية قد تعود على الاخلاق بنتيجتين : إيجابية أو سلبية حسب الطاقة الداخلية والخارجية في المراهق وتلك المرحلة هي مرحلة البلوغ والمراهقة التي تصدر فيها تطورات فسيولوجية تظهر في الابن والبنت فتثير فيهم مختلف المشاعر والاحساسات التي تغير طبيعيا من علاقتهم الانسانية وتخلق فيهم الرغبة في تحقيق تصورات شتى إن لم توجه التوجيه الصحيح من المؤكد أنها

ستنحرف عن الطريق السوى كما قال عالم اجتماعى : « إن مرحلة المراهقة ومرحلة البلوغ من أخطر المراحل فى حياة الفتيان فان لم يقم المربى بدور التربية والتعليم فى هذه المرحلة فالخوف كل الخوف أن يتلقى أولادنا درس الجنس من مدرس آخر لا يرحم هو « ابن الشارع » و « عابر السبيل ». خاصة أن الانسان فى سن المراهقة له طاقة تقبلية وتأثرية كبيرة جدا لمثل الافلام الجنسية المستفزة أو الكتب والمجلات الرخيصة ومن هنا تضاف الى اشتراك البيت والمدرسة فى التعليم والتثقيف الجنسى مشاركة الصحافة والاعلام والسينما والطباعة والنشر بالتخلى عن كل ما يمكن له أن يثير فى المراهق الغريزة الجنسية دون أن يكون له درع تربوى يحمى تفكيره وأخلاقه إضافة الى حماية نفسية وجسدية مما قد يحدث من انعكاسات الجهل بالشىء أو خطا الفهم . اذن فمن واجب المربى كما أشار فرويد فى محاضرته عن « تفسيرات وتوجيهات وتطبيقات » إلى اعانة الطفل على ضبط غرائزه والتكيف للبيئة الاجتماعية خاصة فى السنوات الاولى ذات الاهمية الخاصة لاسباب عديدة أشدها أثرا فى نفسه النمو الجنسى عنده لاول مرة فى حياته نموا يحدد مصير الحياة الجنسية والوظيفة التناسلية عند بلوغه سن الرشد مع كامل الوعى بما يمكن للمربى أن يمنعه وفى أى ظرف وبأية طريقة مع كامل مراعاة تفاوت المتعلمين فى الاستعداد الفطرى وما يمكن أن يهيئه سلوك ما للمرض النفسى. وبذلك نكون قد أنشأنا مربيا معدا لممارسة المهنة التربوية الصحيحة . هذا مع أن الانسان ملزم بمعرفة نفسه بقطع النظر عما نادى به الفيلسوف سقراط « اعرف نفسك » ولو على أساس علمى يضمن سلامة الفرد الصحية والنفسية ومن ثم نصل بمعرفة الانسان ما بنفسه الى ادراكه الحق المبين « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم إنه الحق » أما مفتاح هذه المعرفة فكلمته تعالى كما سبق أن ذكر : [اقرأ] مع إضافة و « وتبين » اليها كانطلاقة من المستوى التعلمى الى العملى برشاد ودراية تعود على الفرد جهازا وعقلا وبالتالى على المجموع بالخير والنفع . فتدريس الجنس كعلم وظائف الاعضاء لا يشعر بالقبح بتاتا ولا بما هو حرام فى الشرع والقانون اللذين يرعيان المصلحة الخاصة والعامة ، تماما كما ندرس وظيفة القلب أو الجهاز الهضمى بتدرج تبعا للسن والمستوى حتى يعلم وظيفة ما خلق فيه ووظيفته هو شخصيا بالرعاية والنظافة والمحافظة خوف الضياع والتلف تماما مثل ما تمنح لعبة للطفل ويعلم الطريقة الصحيحة لاستعمالها حتى لا يفسدها هو نفسه أو غيره . وحتى تعلم الفتاة مثلا أن فى سن معينة يظهر فيها تغير علامته كذا فلا تصدم ولا تجرح كذلك حتى يعلم الفتى علامات التغيير فى أعضائه

التناسلية فلا يصاب بالوسوسة نتيجة الخوف أو الانطواء الشديد الذى قد يتسبب هو الآخر فى أمراض جنسية حقيقية فتؤدى الى فشل الحياة الزوجية إن لم يكن قد خيف الاقدام عليها وبالتالى الالتجاء الى الدراويش نتيجة ماذا ؟ طبعا نتيجة الجهل أو الفهم المذبذب لوظائف الاعضاء التناسلية هذا إن لم يعمد الفتى إثباتا لرجولته الى مباشرة الاتصال حتى مع الاطفال دون اعتبار لاى جنس ينتمون اليه نتيجة الفهم الخاطىء أيضا ومن ثم تأتى مشكلة التخنث بمفهومها الحقيقى . أما قضايا الطلاق فأحيانا ما تكون أيضا لسوء معرفة كل من الزوجين لخصائص أعضائه التناسلية كأن يعتقد الذكر مثلا أن مصدر إنجاب البنات هو الأنثى التى هى الزوجة بطبيعة الحال مع أن علم الطب قد أثبت العكس بل إنه أثبت أن مصدر تحديد جنس الجنين يكون فى الأصل للرجل . وكذلك كأن ينسب أحد الزوجين للآخر العقم مع أنهما لو تعلما مظاهره وأسبابه لبادرا بالعلاج وليس برفع قضية تطالب بالطلاق .

كل هذه ايجابيات تعلم هذا الذى بالامكان أن يعتبر « علم الحياة » . وهى لا تكاد تتعدى مصلحة الفرد الذاتية بخلاف ما يمكن أن تتجاوزه بالفعل الى ما هو أعمق وأكثر اشكالا كأن يعلم السر فى اختصاص المرأة برعاية الصغار وتربيتهم الذى هو يعود أصلا ـ حسب ما توصل اليه علم التحليل النفسانى ـ الى علم الوظائف التناسلية بعد أن ثبت اختصاص السلوك المذكر بالفاعلية والنشاط والسلوك الأنثوى بالقابلية والمطاوعة وبالتالى إثبات سر حاجة الأنثى الى العطف أكثر من الذكر كتحليل أدنى .

ص. د. م.
« سوسة »

أضداء الفكر

● **الاستاذ محمد مزالى عضو بالمجمع العلمى العراقى :**

انتخب المجمع العلمى العراقى فى جلسته الثالثة المنعقدة يوم 6 نوفمبر 1979 الاستاذ محمد مزالى مدير مجلة الفكر ووزير التربية القومية عضوا بالمجمع فتهانينا الى الاستاذ محمد مزالى وتمنياتنا له بالنجاح فى المساهمة داخل المجمع فى خدمة الثقافة العربية .

● **جريدة الصباح تستوجب الاستاذ محمد مزالى بمناسبة السنة الجديدة :**

أجرى الزميل صالح الحاجة لقاء خاطفا مع الاستاذ محمد مزالى بمناسبة حلول السنة الجديدة جاء فيه ما يلى :

بعد الساعة التاسعة بقليل من صباح الخميس الماضى كان لى لقاء مع الاستاذ محمد مزالى وزير التربية ورئيس اتحاد الكتاب وصاحب مجلة « الفكر » .

كان اللقاء مع محمد مزالى المفكر بالذات ،، فهذه الصفة هى التى تطبع أغلب لقاءاته الصحفية ،، سألته بعض الاسئلة فأجاب اعتمادا على رؤيته الفكرية الواضحة دائما ،، والمحددة منذ اكثر من نصف قرن ،، انها رؤية رجل يؤمن ايمانا صوفيا لا حد له بأن الحضارات لا تقوم الا اذا آمنت الشعوب بذاتها وتمسكت باصالتها واعتمدت على سواعدها ،، ورؤية رجل مثقف أو متثقف حسب تعبيره لا يفصل بين القول والفعل،، بين الموقف،، والممارسة،، أى ان افكاره ليست مجرد طلاء خارجى على عكس الكثير من المثقفين العرب سواء كانوا داخل السلطة أو خارجها .

فى هذا اللقاء سألت مزالى عن معنى السنوات عنده ،، وكيف يستقبل سنة ،، ويودع أخرى فقال :

ان العمل المتواصل والنضال درب لا ينتهى وليست له حدود ولذلك فان الحديث عن مفتتح سنة جديدة انما هو مجرد فرصة يجدد فيها الانسان التعبير عن أفكاره ويتخذ فيها عزمه لمواصلة العمل على تجسيم تلك الافكار فى الواقع.

وبما ان التقاليد جعلت من كل رأس سنة مناسبة للتعبير عن بعض الامانى فان الذى ارجوه هو أن تتواصل مسيرة الامة نحو الازدهار والكرامة والمناعة باطراد ، وبدون تعثر ، كما أرجو أن يسجل النظام التربوى مكاسب جديدة فى مجال توفير فرص متكافئة للاجيال الصاعدة حتى يرتقى كل تونسى وكل تونسية الى أعلى مدارج العرفان والثقافة .

وأرجو كذلك ان يسجل النظام التربوى تقدما جديدا فى مجال التكوين الروحى والعلمي والاخلاقى الصحيح بحيث ينشأ ابناؤنا نشأة اخلاقية وعصرية وعلمية تساعدهم على المساهمة فى بناء حضارتهم .

وأرجو بصفة أخص أن تتغلب الثقافة التونسية على العراقيل النفسية والمادية التى تكبلها والتى تشل حركية المفكرين والادباء وتعرقل حركة النشر والتوزيع وربما تورث فى نفوس الكثير من الزملاء اليأس والسكون ، ولذلك اغتنم فرصة رأس السنة الجديدة لاحض رجال الادب والفكر والاساتذة والشباب المثقف على مزيد الثقة فى النفس واكتساب مزيد القدرة على مواجهة الصعاب والتغلب عليها والاضطلاع برسالة الثقافة الشريفة .

وأخيرا ما آخرا أرجو أن يزداد اهتمام صحافتنا اليومية والاسبوعية بشؤون الفكر والثقافة وبصفة أخص بالانتاج التونسى تعريفا وتشجيعا ونقدا بناء .

••

وقلت لمحمد مزالى : بعد انتخابكم على رأس اتحاد الكتاب التونسيين للمرة الرابعة وبالاجماع هل تعتقدون أن الاتحاد يضطلع برسالته الاساسية التى قامت من أجلها الاتحادات فى العالم وهى الدفاع عن حرية التعبير وصيانة حقوق الكاتب فقال :

ان الاتحاد يبذل قصارى جهده للدفاع عن حرية الكاتب من حيث هو كاتب أى من حيث هو يخلق وينشر ،، والمشكلة تتمثل فى تحديد وظيفة الكاتب والتمييز بين (كتابته) و (أدبه) وبين موقفه فى المجتمع من حيث انه مواطن يحمل افكارا سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .

وقد دافع الاتحاد بوسائله المتواضعة وبدون ضوضاء عن بعض الكتاب عندما استهدفوا الى بعض مضايقات وخاصة من طرف دور النشر والتوزيع .

وأرجو أن يتسع التعاون أكثر من ذى قبل مع كل العاملين فى الحقل التربوى والثقافى وخاصة مع وزارة الثقافة والاعلام ، ولا شك ان الاتحاد سوف يجد من صديقى وزميلى فؤاد المبزع التفهم اللازم والغيرة على حرمة الكاتب وكرامة الاديب .

وان مظاهر حضارة أى أمة من الامم وقوتها تظهر فى مستوى المثقفين فيها وقيمة انتاج المفكرين المنتمين اليها وبقدر ما نوفر لهؤلاء المناخ المناسب للخلق والانتاج نمهد لبناء الحضارة القومية ونساهم فى مسيرة الحضارة الانسانية .

••

وقلت لمحمد مزالى : وصفتك جريدة عربية بانك بطل التعريب فى تونس،، فهل ما زال التعريب يحتاج الى المزيد من الابطال أم أنه أصبح واقعا قارا لا اختيارا ثابتا ؟ فقال :

والله لا أعتبر نفسى بطلا ،، ولا يوجد أبطال من هذا النوع ،، وكل ما فى الامر أنى أنفذ سياسة تعليمية واضحة المعالم بالتعاون مع كافة زملائى رجال التعليم مع الحرص أن يكون هذا التعليم أصيلا من حيث روحه ولغته وقيمته واهدافه وان يكون فى نفس الوقت عصريا عاميا آخذا باسباب التقدم المعاصر ، وأعتقد أن النتائج الاولى لاصلاح التعليم تبشر بكل خير .

وبنفس المناسبة صرح الاستاذ البشير بن سلامة رئيس تحرير مجلة « الفكر » والكاتب العام لاتحاد الكتاب التونسيين قائلا :

انى كتونسى ودستورى أصيل يحب أمته ويهيم بوطنه وأهله ويغار عليه وعليهم ويتحمس له ولهم كما يحب عائلته وبلدته أتمنى أن يكون عام 1980 بالنسبة لكل التونسيين عامة وضعفاء الحال خاصة عاما يقدرون فيه على التغلب على غول الاسعار والتمتع بالشغل اذ بدون ذلك فلا حرية ولا عدالة ولا كرامة ولا عزة حقيقية .

وانى ككاتب تونسى أتمنى أن تكون السنة الجديدة سنة ترتفع فيها منزلة الكاتب التونسى وينظر له فيها نظرة الكائن السوى ويجد فيها المجال والمناخ والامكانيات للقيام بواجبه فى المجتمع حتى يرتفع صوته بالحق والحرية والعدل والجمال فيسمع (بضم الياء وكسر الميم) ويسمع (بضم الياء وفتح الميم) شأنه فى ذلك شان كل المستضعفين فى الارض مثل المرأة والكادحين .

وانى كعربى أؤمن بالامة العربية ودورها الحضارى أتمنى أن تكون سنة 1980 السنة التى ينتصر فيها الشعب الفلسطينى على المغتصب الصهيونى ويعزز صفوف هذه الامة لتقوم بدورها الانسانى العالمى الشمولى .

وانى كمسلم أتحمس للاسلام كدين المساواة والعدل والتسامح والاخوة أتمنى أن تكون السنة الجديدة سنة يقدر فيها المسلمون على التغلب على ما يتهددهم فى أنفسهم من نزوع الى التعصب والعنف والانغلاق والتحجر لنصرة الاسلام فينزعوا الى اظهار الوجه الحقيقى للاسلام وهو الوجه الانسانى الباقى على وجه الدهر ، وأتمنى أيضا أن تكون السنة المنعرج التى يكف فيها العالم عن مناوأة الاسلام والمسلمين والتربص له ولهم والكيد لمعتنقيه .

وانى كانسان يهمنى ما يعانيه البشر فى نقاط كثيرة من العالم من حروب وجوع وخصاصة وظلم ودكتاتورية ، أتمنى أن يكف العمالقة الماسكون بالقوة العسكرية والاقتصادية فى العالم عن المواجهة على حساب الشعوب الضعيفة والتدخل فى شؤونها باقامة الدكتاتوريات ومساندة أنظمة الظلم والقهر والدماء ، وأتمنى أن تقدر شعوب الامم القوية تجاه أنظمتها السياسية على فرض نزوعها الى السلام والمحبة والتعاون المثمر .

● **اتحاد الكتاب التونسيين يعقد جلسته العامة :**

عقد اتحاد الكتاب التونسيين يوم الجمعة 28 ديسمبر 1979 جلسته العامة لانتخاب الهيئة المديرة الجديدة بعد عامين كما هو محدد فى القانون الاساسى للاتحاد . وقد افتتح الجلسة الاستاذ محمد مزالى رئيس الاتحاد بحضور الاستاذ فؤاد المبزع وزير الاعلام والشؤون الثقافية وكانت مناسبة ذكر فيها الاستاذ محمد مزالى بظروف العمل التى حفت بالاتحاد أثناء السنتين المنصرمتين فى حدود ما التزم به مؤسسو الاتحاد وما أقره القانون الاساسى وأوكل الامر الى الجلسة العامة لتقييم عمله طيلة هذه المدة ولتحديد ما يجب أن يقوم به الاتحاد بالنسبة للمدة الآتية إما بالسير على النهج الواقعى الذى يحل المشاكل بالتدريج وبالمراحل أو بالشعارات الرنانة البراقة وبالوعود الخداعة .

أما السيد وزير الاعلام والشؤون الثقافية فقد ذكر أن العمل الثقافى لا يقتصر فى مفهوم الحكومة على الهياكل الرسمية بل يتعداها الى هياكل حرة تساهم هى أيضا فى تنشيط الحركة الفكرية فى البلاد ولاحظ أن الهياكل

والمؤسسات الاقتصادية مدعوة هي الاخرى الى المشاركة في المجهود الثقافي وأضاف أن التنمية الثقافية ليست الا وجها من وجوه التنمية الشاملة في تونس . وذكر في ختام كلمته بتكريم الكاتب محمد المرزوقي في تسلمه جائزة الرئيس الادبية مشيرا بدور رجل الفكر في المسيرة الحضارية للمجتمع التونسي .

ثم ناقش أعضاء الاتحاد التقريرين الادبي والمالي بعد تلاوتهما وأبدوا عدة اقتراحات من دون تقديم لوائح اذ جرت العادة (خلافا لما ظنه بعض المعلقين الصحفيين غير الحاضرين) منذ تأسيس الاتحاد أن يقع الاقتصار على مناقشة التقريرين وانتخاب الهيئة المديرة الجديدة على أن يوكل الى هذه الهيئة اعتبار ما جاء على لسان المناقشين من اقتراحات والعمل على تطبيقها . وفعلا فان أمرين اثنين ايجابيين تحققا في هذه الجلسة العامة :

الاول : هو تكوين لجنة تجتمع بعد أسبوع تغربل المقترحات وتصوغها وتوكلها الى الهيئة المديرة لاعداد برنامج عملي .

الثاني : هو تغلب العقل والواقعية على الاغلبية الكبيرة من الاعضاء واعراضهم عن الانصات الى بعض « اللاأدادية » الظاهرين ببرقع « الثورية » وقد تجلى هذا العنصر الايجابي في انتخاب الاستاذ محمد مزالي رئيسا للاتحاد بالاجماع (الذي لم يحضر مناقشة التقريرين وغادر القاعة هو ووزير الاعلام والشؤون الثقافية لحضور اختتام مناقشة ميزانية الدولة بمجلس الأمة مع الملاحظ أن الاستاذ مزالي هو عضو الاتحاد الوحيد الذي انتخب في مجلس الأمة بينما كان للاتحاد أربعة أعضاء في المدة السابقة) وكان هذا الاجماع باقتراح من الاستاذ أحمد الشرفي ولم يعارض أحد من الحاضرين بصورة علنية واضحة (خلافا لما قالته بعض الصحف ولعل معارضة بعضهم كانت في صدره ولا يعلم ما في صدور الناس الا الله و ...)

واجتمعت الهيئة المديرة الجديدة يوم الاثنين 31 ديسمبر 1979 إثر الجلسة العامة ووزعت المسؤوليات على النحو التالي : محمد مزالي (رئيس) محمد العروسي المطوى (نائب للرئيس) البشير بن سلامة (كاتب عام) محمد مواعدة (كاتب عام مساعد) محمد فنطر (أمين مال) عبد العزيز قاسم (أمين مال مساعد) مصطفى الفارسي ــ نور الدين صمود ــ الميداني بن صالح ــ أحمد القديدي (أعضاء) .

وقررت الهيئة الانكباب مع اللجنة المقترحة في الجلسة العامة على اعداد برنامج سنتين واستدعاء الاعضاء في جلسة عامة استثنائية لمناقشة البرنامج.

● **الموت فى شباب النهار :**

مجموعة شعرية جديدة للشاعر السورى محمد منذر لطفى تصدر بعد مجموعته الخامسة أمطار الربيع الدافئة التى كنا تحدثنا عنها فى عدد من أعداد الفكر . هذه المجموعة الجديدة وجه آخر من شاعرية صديقنا محمد منذر لطفى اذ هى تصور فى أغلبها ردود فعل شخصية وعربية وكونية وتحاول أن تستشف المستقبل .

وان دلت هذه المجموعة على شيء فانما تدل على أن شاعرنا قد أحكم فنه وسما به الى مجالات أخرى من شعوره بالمسؤولية كفنان انسان . نهنىء صديقنا الشاعر على هديته الجديدة ونتمنى ان نقرأه ويقرأه أهل العربية في تونس .

● **الحياة الثقافية :**

ظهر العدد السادس من السنة الرابعة (ديسمبر 1979) من الحياة الثقافية وهى المجلة التى تصدرها وزارة الاعلام والشؤون الثقافية . أبرز ما فى هذا العدد ملف خاص بمهرجان ذكرى طه حسين وملف خاص بثقافة الطفل والى جانب ذلك باقة من الشعر والقصة وجملة من النشاطات الثقافية . وفى هذا العدد أيضا فهرست للسنة الرابعة .

● **مجلة العلم والتعليم تطرح استفتاء :**

هل للعلم لغة ؟ تحت هذا العنوان طرحت مجلة العلم والتعليم فى عددها الاربعين س 5 – جانفى 1980 . على كل من يهمه الامر استفتاء هذا نصه . نصه :

« تدعو المجلة (العلم والتعليم) أهل الرأى والفكر ، وأصحاب العلم والمعرفة بأن يشاركوا فى الاجابة عن هذا السؤال الهام فى بعده ومدلوله وهدفه .. والمساهمة فى تحليله وتوضيحه بالطريقة العلمية التى تستند على المعرفة بأسباب تقدم العلم وبأسلوب تطور اللغات .. وتعتمد على تجارب الحضارات القديمة والحديثة .. حتى يكون الحكم على الشيء فرعا عن تصوره كما يقول علم المنطق .. »

ثم تخصص المجلة شبه ملف للتعليم العالى فى الجمهورية العربية السورية . وتورد عنه تحقيقا عن تطويره فى نطاق التعريب الكامل .

● طيور وزهور :

هذه مجموعة شعرية للصديق الشاعر نور الدين صمود صدرت عن الشركة التونسية للتوزيع وهي معدة للاطفال . نجح فيها الشاعر برقته المعهودة في صوغ أناشيد تصلح للحفظ والغناء . نهنيء الشاعر على هذا الانتاج الجديد الذي تفتقر اليه المكتبة العربية ونشكره على هديته ونتمنى أن نرى المعلمين والملحنين يهتمون بهذه المجموعة ويوصلوها الى أذهان أطفالنا مستساغة تبعث في أنفسهم المرح وتروي عطشهم الى معرفة دنيا الزهور والطيور والوطن .

● ترجمة المؤلفات الادبية :

صدر الكتالوج الاخير لترجمة المؤلفات الادبية وهو يتضمن 600 عنوان للاعمال المترجمة برعاية اليونسكو أو بموجب اتفاقات معقودة مع المنظمة وتنتمي هذه العناوين الى 60 أدب مختلف تمثل حوالى 45 لغة شرقية و 20 لغة أوروبية ما عدا اللغات والآداب الافريقية والاوقيانية . (عن وقائع اليونسكو)

● فهرس الترجمات :

صدرت مؤخرا الطبعة السابعة والعشرون « لفهرس الترجمات » وهو يشتمل على احصاء 46.384 ترجمة نشرت خلال 1974 في 62 بلدا وتجدر الاشارة الى أن الطبعة الاولى كانت تتناول 8.570 ترجمة لعام 1948 (عن وقائع اليونسكو) .

● بحوث في الدراسات القرآنية والاجتماعية :

أهدانا الاستاذ عبد الله الوصيف كتابا في الدراسات القرآنية والاجتماعية وقد نشره بمساعدة مركز البحوث بكلية الزيتونة للشريعة وأصول الدين بتونس وهو عبارة عن « مجموعة من البحوث كتبت في مناسبات مختلفة وقعت المساهمة بأغلبها في ملتقيات علمية وندوات اسلامية مثل ملتقى الامام ابن عرفة وملتقى الامام المازري والندوات الاسلامية بالقيروان » وهي أيضا كما قال المؤلف « تعالج قضايا حيوية ترتبط بحياة الناس عن كثب ومناقشتها على ضوء توجيهات القرآن وايحاءاته » نشكر الاستاذ على هديته .

● **مجلة التفتح :**

هى مجلة ثقافية تراثية تصدر عن نادى الآداب والتاريخ باللجنة الثقافية المحلية بالشابة . ومديرها هو الاستاذ محمد الزاهى رئيس اللجنة الثقافية المحلية بالشابة وهذه المجلة تراثية أدبية تتضمن عدة مقالات تخدم « الدين والتاريخ والاصالة ورواد حضارتنا الزاهرة والتراث » .

● **الطاهر الحداد :**

ضمن سلسلة طرائف الادب العربى التى تصدرها الشركة التونسية للتوزيع أهدانا الدكتور جعفر ماجد كتاب الطاهر الحداد وهو عبارة عن نصوص من كتابين للطاهر الحداد وعدد من القصائد قدم لها الشاعر جعفر ماجد ورتبها بحيث تكون صالحة للتلامذة والطلبة وكل من يريد الاطلاع على آثار هذا المصلح .

● **فى التراث العربى :**

هذا عنوان كتاب ضخم من تأليف الدكتور مصطفى جواد صدر الجزء الاول منه فى ذكرى وفاته السادسة سنة 1975 عن وزارة الثقافة والاعلام دار الرشيد للنشر بغداد كما صدر الجزء الثانى من الكتاب فى الذكرى العاشرة لوفاة مؤلفه . وقد أهدانا الصديق الاستاذ محمد جميل شلش نسخة من الجزء الثانى الذى قام بمعية الاستاذ عبد الحميد العلوجى بتقديمه واخراجه وتنصيصه وفهرسته .

ومن الملاحظ أن هذا الجزء الثانى اشتمل على موضوعات رئيسية تتفرع الى مواضيع عديدة منها :

1) **شعراء العراق فى القرن السادس الهجرى :** شرف الدين أبو البدر ، ابن المعلم الواسطى ، الحسين بن شبيب الطيبى ، أحمد بن عمار الحسينى الكوفى ، ملك الشعراء سعد بن محمد الصيفى المعروف بحيص بيص ..الخ .

2) **أحاديث شتى :** الدوبيت وابن الأنبارى دفين الكاظمية ، حكومة بين خمس شعراء .. الخ .

3) **النقد والتعريف** : اخبار البحترى ، ديوان الكاظمى ، ترجمة الشريف الرضى ، وغير هذا كثير ...

نشكر الصديق على الهدية . ونتمنى له مزيد النجاح والتوفيق .

● « **نادى الفكر** » **بدار الثقافة بتستور** :

تأسس بدار الثقافة بتستور مساء يوم 28 - 11 - 1979 تنظيم ثقافى أطلق عليه اسم « نادى الفكر » وهو تابع للجنة الثقافية المحلية . ويقوم بتنشيط هذا النادى جمع من المربين المهتمين بالادب والثقافة .

ومن أهداف « نادى الفكر » ربط شباب المنطقة بالمناخ الادبى والثقافى فى تونس وتشجيع المواهب على الانتاج ومساعدتها على النشر واصدار نشرية سداسية . ويلتقى اعضاء النادى مرة كل نصف شهر لتدارس الموضوعات الثقافية المخطط لها مسبقا ضمن برنامج مضبوط .

نتمنى « لنادى الفكر » بتستور أن يكون جسدا ثقافيا نشيطا ، ويعمل على تحسيس واع للطلبة والتلاميذ بالجهة بشخصية الادب التونسى والتطورات الابداعية التى يشهدها منذ الاستقلال الى اليوم .

● **صلاة أمام عتبة الغد** :

مجموعة شعرية صدرت أخيرا دار « طوروس طورنيان » . حلب . لأمير الشعر الأرمنى المعاصر واهان تكيان . مترجمة عن الأرمنية ومدروسة بقلم : نظار . ب . نظاريات . وتحتوى هذه المجموعة بعد تعريف بواهان تكيان بمناسبة الذكرى المائوية لمولده - على سبع وعشرين قصيدة .

وقد أهدانا الصديق د. طوروس الذى زار تونس أخيرا نسخة من هذه المجموعة نشكره ونتمنى له التوفيق فى أعماله الثقافية .

● **القرن العشرين** :

مجموعة شعرية للشاعر الأرمنى « كيفورك أمين » معربة بقلم : نظار . ب . نظاريات . أما المقدمة فقد كتبها د. طوروس طور نيان صاحب دار النشر بحلب . نشكره على اهدائه نسخة لنا من هذه المجموعة التى تحتوى على سبع وعشرين قصيدة موزعة على امتداد سبعين صفحة من الحجم المتوسط ذى النوع الأنيق .

● **الأدب العربي لأندري ميكال :**

ظهر أخيرا بالعربية من (سلسلة مـاذا أعـرف que sais-je رقم 1355) كتاب قيم تحت عنوان « الأدب العربي » لأندري ميكال . وقد عربه الأساتـذة رفيق بن وناس وصالح حيزم والطيب العشاش . وقد أصـدروه على نفقتهم ، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم .

نشكر الاساتذة على النسخة التي وصلتنا هدية منهم . ونتمنى لهم التوفيق وللكتآب الرواج المؤمل .

● **من وحي البورقيبية « ثروة ثورة » :**

قال محمد عامر مراد بمناسبة ذكرى ثورة 18 جانفي 1952 ما يلي :

عش عزيزا بعد جهد أيها الشعب المثالي / وآحيي ذكرى هي بـذرة فخر النضال / وجدد العهد لمن بنى صرحا قويا للكمال / بعـزم الحبيب سرتم على الدرب بالأعمال / وقل اعملوا فالله يرعاكم في الحال والمآل / الثامن عشر من جانفي ذكرى لنا وللاجيال / صرخته زعزعت فرنسا لفك الاستقلال / لا سلاح لنا سوى شعب كريم شد بالاكبال / عزمه لا يلين ولن يلين رغم قلة الأموال / لا يشترى ولا يباع حبذا وطن الأبطال / من منكم لا يشكـر دومـا فـرحة الاستقلال / هي قوة ربانية لهاته الأرض بالكمال / حبا بها الاله زعيم الشعب المثالي / لم لا ! وقد نادت ندوة بغداد في الحال / سيروا لتونس الخضراء هي موطن الآمال / فكن عند حسن الظن ومن عز الرجال / حتى الأمم جازت اتحاد النسوة للاشغال / مؤتمر عاشر قاده الفذ لنخبة القول والافعال / قمة للعرب عاشرة رفعت رأس تونس عاليا / عشرون دولة لبت نـداء الجـامعة للخيـر للأعمال / هنا تونس هنا الجامعة والفخر لرئيسنا الغالي / أمة تبغى الحياة فكان لها حقا وللأجيال / علم وصحة وأمن قوى من نعم الاستقلال / وعيش رغيـد للأمة ليس بالمكيال / من كان لله يبقى لا ينقطع دوم الاتصال / فأهـلا بجمـع غفير حضوركم خير ركن الاتصال / فللحزب أصـالة وللشعب تقـدم ووفـاء متوال / تونسي أنت ارفع ارفع الرأس ولا تبال / وسر دوما بحكمة القائد للكمال / وكن بطلا لخير البطولة وللأبطال / فمرحى بالوزير المفضل اشرافكم شحذا للأجيال / فالتربية باع وللتعريب كسب في هذا المجال / وزيرنا بلغوا رئيسنا كل التقدير والاجلال / من شعر وفي حقيقة لا في الخيال / سلام الله عليكم وعزكم في حفظ الاستقلال / .